

مقارنات
فصول

جمال النبطاني

منتصف الليل الغربية



<http://abuabdoalbagl.blogspot.com>

أبو عبدو اليبغل

جمال الفطاني

منتصف ليل الغربة

٧



<http://abuabdoalbagl.blogspot.com>

أبو عبدو البغل



الهيئة العامة للكتاب

١٩٨٤

مختارات فصول

سلسلة أدبية شهرية

تصدر عن

الهيئة المصرية

العامّة للكتاب

رئيس مجلس الإدارة

د. عز الدين اسماعيل

تصميم الغلاف : حسين أبو زيد

الإشراف الفني : راجية حسين

أغسطس ١٩٨٤

إشراف

سليمان فياض

وقائع حارة الطبلاوى

مذكرة ايضاحية حول واقعة رقم ١٠٦ قسم الجمالية «القاهرة»

انه فى يوم الاثنين ، وفى التاسعة صباحا ، حضر
الى قسم الجمالية عدد خمسة أشخاص ، من سكان حارة
الطبلاوى ، ثلاثة ذكور ، واثنان اناث وبيانهم كالاتى :

١ - حسن أفندى متولى : موظف بإدارة مكافحة الدودة ،
قسم الفقس ، وزارة الزراعة .

٢ - فارس سعد (الشهير بأبى قورة) : صاحب مقهى
بالحسينية :

٣ - شمعو لطفى : حكيمة بمستشفى الأزهار
النموذجية .

٤ - عويس يونس : فران بناحية كفر الزغارى .

٥ - محاسن حسن : مدرسة ابتدائي ، تعمل بمدرسة
النجاسين الابتدائية .

وتولى حسن أفندي متولى الحديث نيابة عنهم ،
فأدلى بالبلاغ التالي :

« انه منذ ستة أيام قام دخروج النمرسى ، اعتبارا
من الساعة الواحدة صباحا ، وحتى الساعة ، بدون
انقطاع ، بمخاطبة أهالى الحارة مستخدما بوقا مما
يستعمله شرطة المرور فى الميادين والطرق العامة ،
وسبب ازعاجا للسكان ، علما بأنه يبتدىء كلامه
بعبارات بذئية ، تسب أهالى الحارة كلهم ، وتصفهم
بأقبح الألفاظ ، وأنتتها وتمس العرض والشرف ، ونتج
عن هذا اقلق راحة المرضى ، والاضرار بصحة الحاج
أحمد العتر تاجر الورق ، الذى يعالج منذ عامين بسبب
أعضابه ، ولما زاد الحال ، توجه اليه عدد من سكان
الحارة وجيرانه القدامى ، وطلبوا منه الكف فردهم
بعنف ، وطالبهم بفعل ما فى وسعهم ، وكرر مرات أنه
حر ، ولايعنيه أحد ، ولايوجد نص قانونى يعاقبه .
لأن الجهاز الذى يستخدمه لا يخضع للقيود المفروضة على
استعمال مكبرات الصوت الكهربائية ، وذكر أرقام مواد
ونصوص قانونية ، ثم حدثهم عن ماضيه الطويل ، اذ

عمل جنديا فى الخدمة السرية لقوات الأمن العام ،
وأعلن (هناك شهود على ماقاله) ، أنه خرب بيوتا عامرة
خلال خدمته ، وأن أحد أقاربه يعمل الآن بمنصب هام
للمغاية ، ويقوم بتمزيق كافة الشكاوى المرسلة ضده بعد
اطلاعه عليها واحدة ، واحدة ، ثم أغلق الباب بعنف .
وفى الواحدة صباحا بدأ حديثه اليومى ، قذف من
جاءوه واحدا واحدا بالفاظ بذيئة ، وعبارات غريبة ،
عندئذ أطل بعض المستن ، صاحوا عليه راجين السكوت ،
واحترام الجوار . فالنبي عليه الصلاة والسلام أوصى
على سابع جار ، وهنا زاد بداعته وسبهم بالفاظ تخدش
رجولة كل منهم ، وأطلت غويشة امرأته لأول مرة ،
وأعلنت وقوفها بالمرصاد لكل من تسول لها نفسها التهجم
عليها ، أو على زوجها . وقالت انها صاحبت حريم
الحارة والحي أربعين عاما ، جمعت لزوجها دحروج
معلومات تكفى لسد كل بيت بالجسس ، ثم ذكرت أمثلة ،
وسبب وقوع مشاجرات بين أفراد عائلات لم يسمع لهم
حسن من قبل ، مما اضطر السكان بعد ستة أيام من
العذاب المتصل اللجوء الى الشرطة ، وأنهى حسن أفندى
أقواله مطالبا الأمن العام بالتدخل لحماية الأهالى من
المذكور وامرأته غويشة ، فالبيوت العامرة تكاد تخرب .

ومن ناحية أخرى أفاد مسعود أفندي القاطن أسفل
المذكور ، أنه سمع مكبر الصوت أول ليلة وقيل فيه :
«آلو .. آلو .. واحد .. اثنان .. ثلاثة .. الخ»
وتلاوة البسملة عدة مرات ، وبعض آيات الذكر الحكيم ،
عندئذ طلع إلى دحروج ظنا منه أن مصابا وقع ، مما
استدعى تجربة مكبر الصوت في هذه الساعة المتأخرة
تمهيدا لتلاوة القرآن في اليوم التالي ، وعندما طرق
الباب فتحت غويشة وقالت بدون مقدمات «أخيرا حانت
الساعة» ، ولم تدع فرصة لمسعود أفندي كي يستفسر
عن أى ساعة تقصد «انما أكملت» دحروج سيحقق
ما انتوى .. قل لجيرانك ، وجيران جيرانك .. أخيرا ..
حانت الساعة .. ثم أغلقت الباب بعنف ، وأقسم مسعود
أفندي على صحة ما حدث بفتحه المصحف على سورة
ياسين ، ووضع على عينيه وأقسم يمينا .

كما قدم المدعو فارس الشهير بأبى قورة ، شريطا
سجل عليه بعض من أقوال المذكور عن طريق المكبر ، «تم
تفريغ محتويات الشريط» واستعان بجهاز تسجيل مازكة
جروندج خصصه لإذاعة أغاني أم كلثوم على زبائن
المقهى ، وأفاد الجميع بأن الحارة لم تعرف القلاقل من
قبل ، وتعد من أهدأ الحارات وأقلها في عدد المشاغبين

والحوادث نادرة بها ، وسكانها مسالمون لا يميلون الى
ازعاج الغير ، ويحترمون القوانين والجوار الذي لا يقل
بالنسبة لاحدثهم عن عشرين عاما ، وأبنائها التلاميذ
متفوقون ، ومنذ عشر سنوات جاء ترتيب سيد
ابن الحاج نصيف الثالث على شهادة الاعدادية (وطالبوا
باجراء بحوث وتحريات تثبت هذا) والآن لا يستطيع
الطلبة استذكارا ، بسبب أعمال المذكور دحروج
وامراته غويشه» .

ملحق ١

«محتويات شريط مسجل عليه بعض اقوال المذكور ،
ولم يتضح فى هذه التسجيلات ، هل تمت ليلا أو نهارا ،
ولم يعرف تاريخ كل منها ، برجاء وضع ذلك فى
الاعتبار» .

١ - - - الا اذا اطلعتم بانفسكم ، ورايتم
مارايت ، وهذا مستحيل ولم يتوفر لانسان قبلى ،
أذكركم هنا بالمهن العديدة التى عملت بها ، اتقنت كل
منها ، قضيت بها زمنا ، أذكركم بأخر أعمالى ، خدمتى
خمسة عشرة سنة فى صفوف الخدمة السرية بالأمن
العام ، تنقلى بين جميع المديرىات ، والمراكز والقرى ،

سفرى الى بعض بلاد العالم فى مهام خفية ، لن اتحدث
عن تفاصيلها الآن ولكن سيحين الوقت ، ستذهلون
ذهولا عظيما وتقولون ، كيف عاش بيننا ؟ أكثر من
ثلاثين عاما تواجدت بينكم ، هل شعرتم بى ؟ هل عرفتم
أمرا واحدا عنى ؟ هل سمعتمونى اتحدث عن أحد بما
لا يليق ؟ طال صمتى والآن يمكننى قول ما فى قلبى
وعقلى ، ستجدون كلامى شيقا ، البعض سيضيق به
موقتا ، لكنهم فى النهاية سيوجهون الى شكرا ، لأننى
قومت حياتهم وأظهرت ما تعرفونه • ولكنكم تتجاهلون ،
لكن العذر حق لكم يا أهالى الحارة المساكين ، من لديه
خبرة عمر مثلى ؟ من أمسك ببواطن الأمور ؟ من أدرك
الحقائق الخفية مثلى ؟ •

٢ - •• يا معلم يونس ، والله أرثى لك ، سخوت
منى ولن أرد عليك خذها منى نصيحة ، أنا لا أحب
الشجار ، ولا الوقوع فى مشاكل ، طول عمرى لم أقع
فى مشكلة ، لم أقدم كمتهم الى أى مسئول ، لأننى من
زمن طيب ، زمن حلو ، زمن عائق ، رائق ، غير زمانكم
الموحل ، الأغبر ، لكننى سأقوم بالمعوج فيه ، أدبر أموره
وأوجهه ، يا معلم يونس ، أنا لن أفضحك لكننى أنبهك
الى ما غاب عنك ، طبعاً تعرف دكان المعلم ماهر المنجد

فى بيت القاضى ، كلنا ، كل اهل الى حارة الفقر هذه . .
كلنا نعرف يامعلم . من يدخل بيتك بقراطاس الفاكة
كل اءء واربعاء آنت تخرج حوالى العاشرة ويستلم
مكانك فى الثانية عشر ، العيون تحفظ منظره بالجلباب
الابيض ، بخواتم الذهب والصندل البنى ، الحارة كلها
تعرف ولا اءء يخبرك ، لماذا ؟ لان ، سكانها عنءهم
مايكفىهم . . و . .

(ضجة ، تصفيق ، اءياء تسقط ، اصوات . . .)

٣ - . . قبل اى كلام ، انتبه ياخسن افنى .
ياراجل ياءوءة ، انا لايفوتنى شىء ابءا . مامن نفس
زائء لءىكم الا اءصيته ، مامن همسة الا وترجف طبله
اذننى هنا ، الا تعلمون ان جءى كان عالما كبرى فى
الأزهر وانه ترك لى مخطوطا قءىما وعلمنى كيف
أستءءمه ، فأعرف منه المستقبل الآتى ونهاية أعماركم ،
الا تءركون آننى تلقىت أمرا بالءءىء الىكم عن طريق
هذا المخطوط ، يمكننى ان أنبىء كل منكم بىوم يحىن
فىه آجله ، ومن لءىه هذه المءءرة لاىغىب عنه ذهابك الى
قسم الجمالية ، تزعمك وفءا ضءى . شكوتنى ، طلبت
ابقاء اسمك سرا وهذا جبن ، العجىب انكم جمىعا
جبناء ، هذه سمة ىتىمة توءء بىنكم ، اذا خفت منى

أنا الفقير الضعيف الذي ناهز السبعين فلماذا لاتخش
الله خالقى وخالقك ؟ بلغنى ماقلتة عنى أمام مقهى
البنان ، ماجرحت به امرأتى غويشة ، تهديك بأقاربك
فى وزارة التيموين ، ماذا تظنهم فاعلين ؟ اعلم
ياحسن .. يا أهالى حارة الطيللاوى الكرام ، أن
ابن خالة امرأتى غويشة كونستابل ممتاز ، ولاينقطع
عن زيارتنا ويرجونى كثيرا أن أرد زياراته لدرجة أننى
خجلت منه واعلموا أن علبة سجائره تحت أمرى ،
أسلب منها وقتها أشياء ولكننى لآستمعين به قط على
أعدائى ، لأن أحوالى وأمورى التى لن أبوح بها قط
تحمينى وتجعلنى

«امراة» : الرأى لك يادحروج ..

— لن أرد على مقالته الحاج سنومى بائع العطر ..

«امراة» : وصفك أوصافا دنيئة يادحروج ..

— لن أخرب بيتيه ياغويشة ، لن أذكر مصنع
الطور الصغير داخل شققته .. الحاج يتهرب من
الضرائب ياغويشة ومن التأمينات الاجتماعية ، ويستخدم
أولادا صفارا ..

«امراة»: يا خبر . . . والنبي الاعرف هذا كله ،
تصور أنه يلف على صفوف المصلين في الحسين . . . يمسح
أيديهم بالعطر ويبيع زجاجات صغيرة يقول عنها : بركة
من عند النبي ، بركة من المدينة المنورة . . .

٥ - . . . يا أهالي الطيلاوي ، يامساكين ، يا وجوه
النحاس ، يا أشقياء عندما أظهر حيايتكم من الكذب ،
عندما أزيح عنكم النفاق والاضطراب ، وأنظم أموركم
بطريقتي ، سأنزل اليه ، وأطلب منكم أن تحكموا عليه ،
وتلقنوه درسا .

٦ - . . . مثلا ، امراة عمى بدوى عباس البهائم
في الأسواق تتحدث دائما عن آقاريها في مصلحة
السيكك الحديدية ، والدى والثروات الطائلة ، دائما
تكلمكم عن أهل زوجها الأشقياء الذين نهبوا نصيبه في
الميراث ، عم بدوى يرفع عليهم القضية ، لهذا فثمة
ثروة ستأتيه يوما ، عندئذ تشتري الست نعيمة بيتا في
مصر الجديدة حوله حديقة ، وتملاه أثاثا فاخرا وتفارق
الحارة القذرة ، وأهلها الانجاس ، يا أهالي الطيلاوي
اليلهاء ، لأنني أعرف كل كبيرة وصغيرة لأنني أعلم
خباياكم ، ماتظهرون وماتبطنون ، لهذا سأقول لكم
الحقيقة ، الست نعيمة التي تتعالى علينا ، تجدثنا من

طرف أنفها ، لا أقارب لزوجها كما تقول ، لها اخت
 صغيرة لا تدرون عنها شيئاً أسمها راجحة ، وتسكن
 بدروما قديما في حارة سيدى معاذ ، زوجها بائع هريسة
 متجول ، وحتى التزم الدقة ، أقول انه يبيع بطاطا فهو
 يمتلك فرنا فوق عربة يد ، راجحة تساعد في كسب
 العيش ، هل تدرون كيف ؟ عندما تتشاجر امرأة مع
 جارتها تذهب اليها ، تمنحها قروشاً قليلة ، أو ، قطعة
 لحم في رغيف وتستعين بها ، أخت الست نعيمة لها
 محاضر عديدة في البوليس ، وعندما تقل المشاجرات
 تحترف النذب ولطم الحدود وراء الموتى يا أهالى
 البلاوى ، يا أكذب خلق الله في زمانى البعيد الطيب ،
 وأين أنتم من زمانى ؟ أمثالكم لا يسمح لهم بالعيش
 فيه ، آه .. راح زمانى الأخضر ، أيامه هنيات ، كنا في
 الليل نسمع الأغاني في المقاهى الدافئة ، نشرب الزنجبيل
 والقرفة ، نصلى الفجر ، فى نفس هذه الحارة ينزل
 الرجال يصيحون على بعضهم ، كل منهم ينبه الآخر ،
 وفى الليل الرائق تسمع القباقيب ، والماء والوضوء ،
 ثم نخرج جماعة الى الحسين ، ونقابل النهار بوجوه
 سمحة ونفوس راضية . فى زمانى رأيت الأمان ذاته .
 لا انسان يخاف على ماله أو أولاده أو بيته ، وكلما
 رأيت مايجرى بينكم يدركنى والله رعب ولكننى ملازمكم

حتى أقوم المموج وأعيد السيرة الصافية هنا في حارة
الطبلاوى وليلحقنا باقى الدنيا ، لن أسمح بتكرار
ماقامت به الست نعيمة عندما زارت جارتها أم سهير ،
وعندما دخلت لتعد شايا ، مدت يدها ودست ورقة
نقدية قيمتها خمس وعشرون قرشا فى صدرها ، أنا
الآن أدفع التهمة عن مجدى الابن الوحيد للست سهير
والمتهم ظلما ، والمهم .. أثنى لن أطيل عليكم ..
٧ - «أصوات مرتفعة» ياكلب -

يا ... اذ ... اذ ...

٨ - .. أرجوك يامسعد أفندى ألا تتسائل
ماوصلنى وصل وانتهينا ، وأنا واثق أنك وحدك تعلم
مقدار النقود التى تخبئها ، الفلوس الفضية القديمة ،
الفضة الحقيقية ، فئة القرشان والخمسة قروش ،
والعشرة - أعرف عدد علب الصفيح المصفوفة فى
منزلك ، وهوايتك ليلة الجمعة عندما تفرغ العلب من
محتوياتها ، وتنشئ أكواما من النقود ، تغير أشكالها
كما تشاء ، ثم تغسل النقود كلها فى طشت نحاسى كبير
ثم تنام نوما هائلا ، بسبب هذه القطع من العملة والنقود
الأخرى التى لن أذكر مكانها - لم تتزوج ، ذاب عمرك
فى عملك - أذكرك بما فعلته الست نعيمة عندما سرقت

مطلفا تافها من أم سهير ! تعال. نبحث عن السبب معا ، ثم
دعنى أقل لك كيف نمنع وقوع هذا .

٩ - يا ولد يا جابر ، يا سعيد ، زمانكما أجرب ،
لم تذوقا طعم النساء ، لم تستمتعا بأى شئ ، لو بيدى
الحررت لكما جوازى سفر تهاجران بهما الى زمنى الأول ،
فيه عرفنا الأبكار الحقيقيات ، رأينا الحياء على حقيقته ،
ذقنا المتعة ، الأتوثة الريانة ، كل ماتلانه وقفة
بلا جدوى أمام مدخل الحارة ، أصفيا الى .

١٠ - وأثناء قيام السيدة لواحظ .

١١ - أحمد العطار الشاب العفى الذى يركب

الكبير قبل الصغير ، الفائح الرجولة ، هيه . . لكنه زمن
مائع ، لا يعرف فيه الرجل من الأنثى ، فالقلوب معدول ،
والظاهر باطن ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى . .

بعض الوقائع

٠٠ كل ماقاله دحروج ، كتبه عبد المقصود أفندى ،

لديه خبرة عمر فى كتابة العرائض والشكاوى ، يعرف
المدخل المناسب لكل شخصية وذى منصب مايجب قوله ،
وما لايقال ، ذكر ما قيل فى حق امرأته ومايسئ الى
فوقية ابنته التى دخلت سن الزواج ، ماسيلفت نظر

المسؤولين بوزارة الداخلية بالذات هذا المطلب العجيب الذى وجهه المدعو دحروج الى الاهالى ، ضرورة تعديل اوقات نومهم ، بحيث ياوى الجميع الى أسرتهن فى تمام الرابعة والنصف بعد الظهر كل يوم ، مع مراعاة ظروف الذين يعملون فى نفس الفترة ، ثم يوقظهم دحروج عن طريق مكبر الصوت ليتحدث اليهم ، وينظم أمورهم ، لم يكتف بهذا بل منح الاهالى مهلة قدرها ثلاثة أيام يتحولون فيها من نظام الى نظام ، يغيرون عاداتهم ، عبد المقصود أفندى سطر خطا ثقيلا بالمداد الأحمر ، تحت حديث لدحروج ، قال فيه : «منذ الآن حارة الطلابى لها ناموس غير النواميس» .

الآن يضيق عبد المقصود أفندى ، اضطر الى ذكر أقوال دحروج حول امرأته وجيدة ، سيفضح نفسه ، لكن من الضرورى جدا اثباتها ، اذ أنها التهمة الوحيدة الواضحة التى يمكن أن يعاقب عليها طبقا للقانون ، يتململ عبد المقصود أفندى اذ يتخيل تهامس النساء فوق السلام حول زوجته «المرأة جنت على كبر» تؤكد أخرى أنها تعرف ماقاله دحروج من قبل ، وسكتت طويلا حتى لا تنهش عرض جارة قديمة ، مايطمئن قليلا أن دحروج حذر كل انسان ، رجلا أو امرأة ، من تناول مضمون

حديثه بالزيادة أو التثويش ، لكن هل يكفي هذا لربط
الأسنة ، قام ، تحسس الأرض بحثا عن شبيهه ، قضى
اليوم كله فى البيت ينسخ العريضة ويرقب تصرفات
وجيدة .

نظراتك غريبة ياسى عبد المقصود .

استغاذ بالله ، يحاول ألا يعلو صوته ، كل حركاته
ونظراته تفسر الآن ، كل ماتقوله هى يتحلل فى ذهنه
الى حيرة ، الى استفسارات ، استجابتها أسرع مما يجب
لمطلبه بمنعها من الطلوع الى عشة الفراخ فوق السطح ،
حجرة الأسطى عبده بمواجهتها ، سائق النقل العام
بمفرده ، ينام اليوم كله ، ينزل فى المغيب ليتسلم نوبة
عمله ، ينظر الى امرأته ، ينهض صدرها ، لم تغب
ملاحظته عن عين دحروج ، بل سخر قائلا : «هل يوجهه
الأسطى عبده كما يمسك مقود العربة» . ما يضايقه
اضطراره الى ذكر هذا كله فى العريضة . ربما سخر منه
المسؤولون ، لكنه أحكم الصياغة ، عدد من الجيران علموا
بنيته فى ارسالها ، أبدوا بشرا وعلقوا آمالا ، يعرفون
شهرته . بل ان أحدهم قال بالنص : «هذه العريضة
ستدبح دحروج ذبحا» لكن عبد المقصود الآن يتنفس
ببطء ، لم يتشاجر مع امرأته يوما ، حتى بعد انقطاعهما

عن بعض فى السرير ، يذكر الآن حديثا لحسن أفندى
متولى عن شهوة بعض النساء اذ يبلغن الخامسة والأربعين ،
يطشن ، ألفت ساعة الحائط ثلاث دقائق مختصرة ، بعد
غد يحين انتهاء المهلة المحددة ليبدأ جميع أهالى الحارة
نومهم فى الرابعة والنصف ، سمع امرأته تتثائب ، نظر
اليها ، وحنق فى عينيه .

(٢)

باق عشر دقائق .

فى الواحدة يعلو مكبر الصوت ، يزن قليلا ، يلقي
دحروج تحية المساء ويلعن الدنيا القاتمة ، ويرثى الزمان
القديم ، ويؤكد أنه سينتظر كل شيء ، ثم يتلو ماوصل
اليه من أخبار ، يرد عليه البعض ، وتلقى الحجارة على
نوافذ شقته المقفلة ، مهما حدث لن يفتح الحاج حمزة
جزءا من نافذته المطلة على الحارة - حتى الآن لم يتعرض
له دحروج ، مع مرور الأيام ، وقيام الهياج فى الحارة ،
أيقن الحاج حمزة أن اعتبارات عديدة تدخل فى امتناع
دحروج عنه ، أهمها أنه قضى أكثر من ثلاثين عاما ناظرا
لمدرسة كتبخدا الابتدائية . تلاميذه أصبحوا الآن رجالا ،
يقابلونه فى الطريق ضباطا ومهندسين وكتبة فى المصالح

الحكومية ، يصافحونه فى المقهى اذ يجلس مرتديا
جلابيه الأبيض متأملا لاعبى الطاولة ، أيضا ربما يعلم
عنه دخروج موقفه عندما عرضوا عليه منذ عشر
سنوات الانتقال الى مدرسة الروم الابتدائية مع ترقيته
ناظرا ، لكنه رفض ، أثر البقاء فى الحى الذى ارتبط
به ، ومرت أربع سنوات كاملة قبل أن يصبح ناظرا
لمدرسته ، يعرف أن دخروج لم ينجب ويرثى له ،
بالتأكيد يعانى ضيقا وآلاما ، لو أنجب طفلا وألحقه
بالمدرسة لأولاه عناية خاصة ، الآن لا يضيق بازعاج
دخروج ، ليفعل ما يشاء ، ليسب أهالى الحارة ، ليعيد
الأمور فيها كيفما يشاء ، فعلا كثير من الأوضاع يجب
تقويمها ، ليحدد للسكان نوعيات الطعام التى يجب أن
يأكلوها يوميا ، المهم . . ألا يذكر شيئا عن بناته ،
دخروج عالم بكل شيء ، مطلع قطعاً على أفكاره الودية ،
انه أول من ينفذ تعليماته ، عندما طلب أن ينام الجميع
فى الرابعة والنصف ، أسرع الحاج حمزة بتطبيق هذا
على بيته قبل انتهاء المهلة بيوم ، بناته أبدين ضيقا
وامتعاضا ، أجبرهن على طاعته . لا يد أن يتأكد لدى
دخروج أن الحاج رجل طيب ، مرب فاضل كما تتحدث
عنه كلمات الطلبة فى المدرسة ، كما وصفه المدير فى
العدد السنوى من مجلة المنطقة التعليمية . فى كل

ليلة يصغى اليه ، اذ يسكت دحروج لحظات يمسك
 أنفاسه ، خشية أن توجه الفقرة التالية ضده ، تتعاقب
 عليه الانفعالات . مايرعبه أن يتحدث دحروج عن
 البنات ، بالأمس أبدت سعاد ابنته ضيقا ، تعودت عمرها
 كله استذكار دروسها من الخامسة حتى الحادية عشرة ثم
 تنام ، كيف تغير نظامها وامتحان التوجيهية مقرب ،
 أحاطها بذراعيه ، دفعها أمامه ، كاد يكمل فاهها ، قال :
 لاتزعجنى ، عمك دحروج لم يتعرض لنا ، عمك حر .
 صباح اليوم جاء بيومى السائق بمصلحة السكة
 الحديدية ، قدم اليه عريضة قال ان نصف سكان الحارة
 وقع عليها ، والباقي سيوقع ، سوف تحدث العريضة
 صدى كبيرا لدى المسؤولين ، خاصة بعد طلبات دحروج
 الغربية من الأهالى ، واصراره على نومهم مبكرين ،
 وتوحيد طعامهم اليومى ، على أن يتولى الطهى بيتان أو
 ثلاثة يوميا لكل الأسر ، مقابل مبلغ يتفاوت طبقا لقدرة
 هذا وذاك يدفع أول كل شهر الى حسن أفندى متولى
 شخصيا ، قال بيومى ان المسؤولين سوف يتدخلون
 فورا ، لأن العريضة سترسل بالتلغراف ، والمطلوب
 فقط قرشان والتوقيع ، الحاج حمزة لم يدع بيومى
 يكمل ، تفجرت هدوء عمره كله .

« اسمع . . »

أسرع يطل من النافذة ، زعق مخاطبا أهالى الحارة
 بيومى وغيره . مع أن بيومى يقف فى الصلاة ، انه لن
 يوقع على أى عريضة ضد جاره القديم دحروج
 النمرسى ، (وهنا علا صوته تماما ، وهذا ما لم يعهده
 أهالى الحارة) . انه غير منزعج أبدا ، وما يفعله دحروج
 من حقه تماما ، سكت لحظة ثم زعق انه لا يمت بصلة الى
 حارة الطبلالوى ، ولا يعتبر من سكانها لأن مدخل بيته
 وشرفته الرئيسية تطل على شارع قصر الشوق ، أما
 النافذة التى تصله بالحارة فسيرسل فى طلب نجار
 ليسدها فى الحال ، برغم هذا سيصغى الى دحروج ،
 وينفذ كل ما يأمر به ، خاصة وأن صحته وصحة الأولاد
 تقدمت بعد نومهم مبكرين ، انه ينصح جيرانه نصيحة
 لوجه الله : الحذار ، الحذار من أى عمل خفى ضد
 دحروج ، لأن الرجل مكشوف عنه الحجاب ، والا . .
 كيف تأتى له معرفة نص عريضة عبد المقصود أفندى
 كاملا ؟

(٣)

فترة تلى أذان الفجر ، يتحلل على مهل سواد الليل ،
 تولد ملامح البيوت ، تتخلق ألوانها من جديد . ومن نبع
 خفى يطل بخار أبيض منظور عالق بالفراغ ، بلاط

الحارة يلمع تحت ضوء القانوس الغازى الوحيد الذى يبدو يتيمًا شاحبًا ، فى مواجهة ضوء نهارى وليد ، ومن نافذة متسعة ، فى الطابق الأول ، بالمنزل الرابع ، تطل الست روحية مع أولادها السبعة - صامتون يصغون الى مايقوله دحروج ، أيضا عائلة أم حسنى حتى الجدة العجوز ، منذ فترة وجيزة سكنت ، بدت نافذة بيته مغلقة ، بنية اللون ، لم يرها أحد تفتح أبدا ، يعرفون أنه لن يكف تماما الا فى تمام السابعة ، لهذا ينتظرون الآن استئناف الحديث فى أى لحظة - فجأة انبثق صراخ رفيع ، حاد مسنون ، عويل متآن يبذله الجسم والنفس معا ، ممدود مقبض ، فيه خلاصة العجز الانسانى فى مواجهة أمر قاهر ، بدأ فرديا ثم أصبح جماعيا غليظا عبوسا ، نظرت الساهرون من السكان الى منزل صالح أفندى ، فتحت نوافذه بصعوبة ، خرجت كلمة من بين العويل ..

ياخويا ..

استعاذ أهالى حارة الطبلوى بالله ، كلهم بدون استثناء ، بدا خوف غامض على وجوه السيدات ، ينظرن الى نافذة دحروج المغلقة ، وكأنها باب للفرج أوصد ، أول أمس صاحت امرأة صالح أفندى فى تمام الثانية

صباحا مخاطبة دحروج ، تحدثه . . اذا احاط بكل مايجرى بالحارة ، طالما أنه أوتى معرفة ما سيحدث ، وبعض الأهالى يقولون يرفع الحجاب عنه ، فليقل لها اذن : هل سيشفى ابنها تيسير ؟ وحيدها المريض منذ عام ، الذى حارت به ، وولفت على جميع المستشفيات . يذكر أهالى الحارة الآن صمت دحروج ، ثم قوله المقتضب : «يا ألم تيسير ، لو طلعت شمس يوم الثلاثاء على اينك ، ووجدته حيا سيعيش مائة سنة» ثم استأنف كلامه العادى . . الآن ، يبدو الثلاثاء جهما لا يطاق ، وتذوب الأحشاء فى العويل القاسى ، والشمس على وشك الشروق . .

(٤)

حتى مغيب اليوم التالى على ما أذاعه دحروج . لم تدر حسنية ماذا تفعل هل تذهب مع أولادها الأربعة الى ورشة الحاج بندق صانع التماثيل الخشبية ، تولول ، تجمع عليه الخلق ، تحكى كيف تزوج فتاة صغيرة ، ويبالغ فى تدليلها ، ولا يعطى بيته مصروفا كافيا . لم تقصر فى حقه ، بداية حياتهما هنية طرية ، فى سنين زواجهما الأولى . رأت امرأة شعناء جاحظة ، تدفع سربا من الأطفال ، وتحمل رضيعا ، تقف أمام دكان

موييليايى ، تطالبه بالمصروف ، تركها منذ أسابيع ، تذكر الدم المتدفق الى وجه المرأة ، عزوق رقبتها النافرة الزرقاء . يومها قالت «بندق لن يفعل هذا بى أبدا» ، قبل عودته تطمئن الى نظافة البيت ، تمشط شعرها ، تنهيا لاستقباله ، تروى بدننها بالأطاييب ، حتى تبدو ريانة يستريح اليها من عناء يوم طويل ، الآن لاتجرو على الذهاب الى الورشة ، ربما يبهلها ، ستجربى فى أروقة المحاكم ، تنوء فى طرقاتها . فى نظرات الكتبة الشبان والعجائز ، تبلى فى الانتظار ، لاتقدر على العودة الى البلدة ، شقيقها لن يحتملها مع أولادها ، لن تطيق نظرات الحريم ، يقلن فيما بينهن «لم تنفع فى مصر» لاتدرى ماتفعله الآن ، هل ترمى نفسها من الطابق الرابع ؟ تتخلص من ضيقها ، تنهى أوجاعها ومصائبها ، اذا لم تمت ربما قضت بقية عمرها عاجزة لاتصلح لعجين أو خبيز أو غسيل ، من يدرى ربما يرق قلبه اذ يراها مصابة ، يحن ويرجع الى أولاده . جاراتها نصحنها بالمضى الى دحروج ، تقف تحت نافذته ، ترفع صوتها راجية أن يدلها أى السكك تسلك ؟

(٥)

.. أمام جامع سيدى مرزوق ، يقف حسن أفندى

متولى ، يقرأ الفاتحة ، فيما بعد لم يدر الحاج بيومى هل تم اللقاء مصادفة أم تعمداً مقابلته ؟ عيناه حمراون ، لم ينم ليل الحارة ، لم يتعود على النوم فى تمام الرابعة والنصف لايمكنه الآن الا الاضطجاع أثناء حديث دحروج ، قال حسن أفندى انه لافائدة من أى عمل تم حتى الآن ضد دحروج ، حتى عريضة عبد المقصود أفندى المشهور بصياغة العرائض وحبكها لم تأت بنتيجة ، بل ان أحد صورها المرسلة الى جهة رسمية أعيدت اليه لأن البريد لم يستدل على عنوان احدى الوزارات ، ثم ماهى حال عبد المقصود الآن ؟ بيته خوب بعد عمار ، هجرته الست وجيدة بعد أن أغرقها بالشك ، قال حسن أفندى ان مايقوم به دحروج لا يوافق عليه ، وهو لم يقصر فى سبيل ايقافه عند حده ، وأهالى الطبلأوى يعرفون كلهم ، الكبير منهم والصغير أنه أول من ذهب الى القسم على رأس وفد من الحارة ، وقدم بلاغا وقع عليه ، وأملى بصوت عال رقم بطاقته العائلية ، وحتى الآن لم يحدث أى استدعاء لدحروج فلم يره أحد يخرج من بيته ، لم يظهر لدرجة أن بعض الشبان المتهورين الذين لا يدرون آخر العواقب ، قالوا فيما بينهم لاوجود لرجل اسمه دحروج ، والا فأين هو ؟ أما الصوت الذى يخاطب الأهالى ، فربما كان

بعض الأشقياء يريدون فرض أمور خطيرة على الحارة ،
وما الصوت الا تسجيل يضعونه بين الحين والحين .
وربما تتعرض الحارة لظاهرة خفية ، وأمر غير مرئية ،
وعندما ذهب أحدهم الى بيت دحروج ، تناقش مع مسعد
أفندى ، أكد له وجود دحروج وامراته غويشة . وهذا
أمر لا ينكره الا أجنبى عن الحارة أو مجنون ، لأنه يعيش
بينهم طوال عمره ، صحيح لم يسمع له حس ، ولكنه
لم يحتاج الا بعد بدئه الحديث مع الأهالى ، وقال مسعد
أفندى انه أدري بوجوده لأنه يسكن تحته ، ويسمع
صوت تحركه بالليل وبالنهار ، وهنا ارتفع صوت حسن
أفندى ، هل تعلم ماذا جرى يوم أمس لشكرى ، أحد
الشبان ، قال بيومى انه لايعرف بسبب تغيبه فى
السفر ، قال حسن أفندى : فى المساء قال دحروج كل
ما تناقشوا فيه ، وحذر شكرى مثير الشكوك ، ثم أنذره
بعدم الذهاب الى امتحان الكلية ، ولو خالف فسيذيع
الأدلة الدامغة بانتمائه الى إحدى التنظيمات السرية
التي تعمل ضد الحكومة . قال حسن أفندى أيضا ، انه
رجل هادئ بطبعه لا يحب الأزعاج ولا يطيقه ، قال حسن
أفندى انه يؤمن بعدم فائدة النطخ فى الحجر ، وان
النقش على الماء عبث ، والنفخ فى قرعة مقطوعة مضيعة
للولوقت ، لهذا كله ، ولأسباب عديدة ، بعضها خفى ،

وبعضها معلن ، يرجو من الحاج بيومى سحب توقيعه .
 قاطعه الحاج قائلا انه أرسل العريضة فعلا ، صحيح أن
 السكان لم يوقعوا فعلا كلهم ، لكنه أرسلها حتى يحرك
 المسئولين ، استفسر حسن أفندى عن الجهات التى
 أرسلت اليها العريضة . وكتبها فى ورقة ، أبدى غما .
 قال انه سيرسل الى كل منها تلغرافا يعلن تراجعه ،
 قال ان الناس يحبون لبعضهم الأذى . ولا يصح للحاج
 ولا لغيره ارسال العريضة بدون أخذ آراء من وقعوا
 عليها ، احتد الحاج بيومى قائلا : مجرد التوقيع يعنى
 الموافقة على ارسالها ، زعق حسن أفندى ، أبدا ، أبدا ،
 لا يوجد ولن يخلق من يعلمه الأصول ، هو موظف الحكومة
 الذى قضى عمره بإدارة مكافحة الدودة ، قسم الفقس ،
 علا صوت الحاج بيومى موضحا ، انه هو أيضا موظف
 حكومى ، أليس السائق بالسكة الحديدية موظفا رسميا
 يقبض مرتبا شهريا ، ويتقاضى علاوات أكثر من التى
 يتقاضاها موظف فى الدرجة السابعة ، مط حسن
 أفندى شفثيه احتقارا . توقف بعض المارة ، تجمعوا
 حولهما .

مشاهدات الرقيب صالح عبده ،
بالأمن الخاص في حارة الطبلاوى
عندما جاء يستطلع الأحوال :

«ياحاج بيومى .. ياحاج بيومى ..»

كان البعض يجيب بتصفيق ممائل ، الضوء عال ،
والنهار شاحب مرتحل . هدوء ثقيل مراق بسخاء ،
منذ دخوله الحارة لم ير طفلاً ، أو امرأة ، عادة يتصايح
الصبية حوله ، يمشون خلفه يتوقعون منه حركة عنيفة
مفاجئة ، فيحتفظون بمسافة معينة ، ربما اتقن الأهالى
هنا تربية أولادهم ، حرموا عليهم اللعب فى الحارة ،
توقف فى الطابق الأول أمام باب جهم المنظر ، خبط
مرات ، لم يجب أحد ، دق الباب بعنف ، حركة صغيرة
مترددة ، صوت شبشب ، عاد يطرق الباب ، يأتى
همس ، اثنان يتبادلان الحديث ، لم يدر آهما رجالان
أم امرأتان أم رجل وامرأة ؟ صفق مرتين ، علا
صوت :

— ما هذا الازعاج ؟ ألا نستطيع النوم فى راحة ؟

— الحاج بيومى موجود ؟

— فوق .. فوق يا عالم . ارحمونا ، ودعونا

ننام .

طلع الحاج ملتفا في عباءة قديمة من وبر الجمل
ورثها عن والده ، عيناه ضيقتان ، فيمها آثار نوم ،
الشرطي صالح لا تزعجه مثل هذه المقابلات ، أمثال
الحاج يتباهون قائلين : طول عمرنا لم نمض الى قسم
بوليس ، ولم نقف أمام نيابة .

«أنت قدمت»

لم يكمل الشرطي صالح حديثه ، قاطعه الحاج ،
صوته رفيع حاد كصفير قاطرة متحرج .

— أنا لم أقدم ولم أشك من ..

— ولكن ...

— تنازلت يا أخى . تنازلت عن الشكوى
والعريضة ، المصارين تتصارع في البطن ، ما بالك
ونحن جيران ؟

ينظر الشرطي صالح دهشا ، قال الحاج انه تنازل
عن كل شيء ، وأنه على استعداد للذهاب الى السجن
بسبب ازعاج السلطات ، لكن أن يسأل سؤالا واحدا
حول جاره العزيز : لا . ثم يجب على الشرطة اختيار
الوقت المناسب للحضور الى الناس ، أما اطلاقهم في
أحلى ساعات النوم ...

نزل الشرطي صالح الى الحارة . نوافذ البيوت

مغلقة ، تلفت حوله حائرا • دخل بيت دحروج ، فى منتصف الليل قبل بدء الحديث اليومى ، قيل ان دحروج خرج وتحديث للشرطى فعلا ، وان ضحكاته سمعت واضحة لمن لم يدركه النوم فى المواعيد المحددة ، أيضا استفسر دحروج عن بعض الأشياء ، أبدى اهتمامه شجاء أسماء معينة ، أبدى الشرطى دهشة • قال دحروج انه يعرف هؤلاء كلهم ، وكبيرهم رهن اشارته ، ثم أوصاه باتمام اجراءاته على آتم وجه ، فى هذه اللحظة دخل الحارة المعلم يونس الفران • رآه الشرطى صالح يرفع يده بالتحية اذ يمر تحت بيت دحروج ، التوافق مغلقة لكنهم يثقون انه يراهم ، يعرف من ألقى السلام ومن لم يلقه ، يعرف من جرؤ على تناول الطعام بمفرده خارج الحارة • أو فى بيته ، الحاج حمزة يفتح النافذة يوميا قبل نومه ، ويزعق بالسلام حتى بعد تعرض دحروج بالكلام لابنته الصغرى ، وذكر بعض تفاصيل علاقاتها بمدرس الكيمياء • أم تيسير منذ رحيل ابنها ، بمجرد أن يبدأ دحروج خديته تنزل مهرولة بقميص النوم ، ترفع ذراعها زاعقة تحت النافذة : «الله أكبر • الله أكبر» عليه وعلى شبابه ، دحروج بركة ، أى مخلوق يجرؤ على شكواه ستناله مصائب ومحن ، وتفرقه رزايا • حتى الحاج أحمد تاجر الورق ، المريض

بأعصابه ، قال لكل من زاره أخيراً : إن صوت دخروج الليلى لا يزعجه بل ينبئه أن شفاءه سيتم قريباً ، وأنه قبل ماكلفه به دخروج من قيامه بدور الوسيط بين المتخاصمين فى الحارة . بعد فترة آيقن رافة دخروج به ومراعاته لظروف مرضه ، لم يعد يتخاصم أحد ، ومن لديه وجيعة يمضى بها طارحاً أياها أمام دخروج ، أسند إليه أخف المهام ، وفى الواحدة صباحاً يقف بالشرفة ، ويضحك ، ويهز رأسه موافقاً ، يصيح مستحسناً ما يقال ، عند باب الحارة توقف الشرطى صالح عبده لم ير أحد ، لاينوى توجيه أى سؤال ، رأى طفلاً صغيراً يتجه الى مدخل الحارة . لمعت عيناه لحظة واتجه الى الطفل . انحنى حتى قارب رأسه ..

— اسمك يا شاطر ؟

— سعد .

— انت من هنا ؟ من حارة الطبلاوى ؟

أوماً الطفل ، بدا قلقاً ، الأطفال لا يكذبون ، كواجب أخير شحاول أن يعرف منه .

— يعنى ألم تسمع ميكروفونات أبدا بعد ..

هز الطفل رأسه . ابتسامة مرتعشة قلقة .

— خيالات يا شاويش .. أبدا .. أبدا ..

٠٠ هل تنام يا بنى

رفع الصغير عينين شاحبتين ، بدأ متعجبا : أى سؤال هذا ؟ ما الذى يقوله هذا الشاويش ؟ انفلت
يجرى مسرعا .

« تأشيرة على المذكرة الايضاحية رقم ١٠٦ م ، وعلى
تقرير الشرطى صالح عبده ، وعلى عرائض مقدمة من
بعض أهالى حارة الطبلأوى ، وشكاوى من مجهولين ،
وتصوص مكالمات تليفونية ، لمواطنين رفضوا ذكر
أسمائهم »

« يحفظ ... »



منتصف
ليل
الغربة

اشارة تليفونية

من مديرية الصناعة الى مديرية الصحة
بناء على اشارتكم لنا بتاريخ اليوم ، بخصوص
سرير خال بالاستراحة طرفكم .
نرجو حجز مكان باسم السيد/ يوسف عبد الرحمن
الموظف المستجد طرفنا .

مبلغ الاشارة
امضاء

تتراجع البيوت على مهل : الدكاكين الصغيرة ،
والاعلانات ، وألواح الزجاج ، يصيح رجل مناديا على
تاكسي بالنفخ ، تنساب أغنية من بيت قريب . يذيعونها
دائما في هذا الوقت ، وحدة الظهيرة ، تزيد من الحركة ،
يعود الناس من أعمالهم في مدينته البعيدة الآن ، كان
اذا يرى أباه يصيح : هيه . . بابا جه . . بابا جه .
لا تذكره الأغنية بأيام راحت . بل تثير في نفسه تراب
الحزن الدفين ، أيام حلوة مزهرة مشرقة . جرى فوق
رمال الشاطئ ، احتوى البحر بعينيه ، وسامية بين
ذراعيه ، أطعمته بيدها لحم السمك المشوى الأبيض ،
مسحت عن شفتيه قطرات ماء البحر مالحة الطعم ، الآن
يعض شفته ، وقع عجلات حنطور رتيب ، الهواء حوله
بارد ، قالوا له ان برد المدينة شديد ، خاصة اذا ما نزل
الليل ، قالت أمه : اذا شعرت ببرد ضع جريدة قديمة
فوق صدرك ، ربما تقف الآن في الشرفة ، تعرف أن
يوسف لن يظهر عند منحني الشارع ، أبوه لم يصل ،
ربما جاءت أخته الآن ، كان يروح ويجيء بين الغرف ،
يقرص أخته ، يسألها : هل تعرض لها أحد ؟ يأكل
بسرعة ، يمد يده ، يداعب ذقن أمه ، تحكى له عما
رأته عندما نزلت تشتري السمك ، دارت . . بحثت
حتى وجدت السمك الذي يحبه ، الأسواق مافيها الا

الشبار الصغير ، عند رجوعها قابلت السيدة أمينة ،
 كلمتها عن محمد الذى جاء وقرأ فاتحة ابنتها ، سعاد
 لم تتعلم ، ولها ثلاث أخوات كلهن بنات • أصولها ترضى
 بأول ابن حلال يجيء للبنات ، يصغى يوسف • فجأة ،
 يسأل أمه : ألم تحضر بنت حلوة كالقمر ، وتسال عنه؟
 فترفع أمه يديها وتطلب من الله تعالى أن يعجل بهذا
 اليوم الذى ترى فيه عروس ابنتها ، تجاوزت العربية
 آخر بيوت البلدة الحلاء يتسع ، النخيل يتشابك ،
 الحنطور يمضى متمهلاً •

★★★

الأربعاء ٢٢ ديسمبر

هل خاف الأطباء على أنفسهم من العدوى فأثروا
 العزلة ، لكى أقطع المسافة حتى المدينة لا بد أن أمشى
 نصف ساعة فى طريق مترب ، خال تماماً من البيوت
 والعشش ، تماماً ما توقعته لحظة رؤيتى المبنى ، النوافذ
 مستطيلة وكبيرة جداً ، مغلقة ، وكأنها لا تفتح أبداً ،
 أما الشرفة فقد أحاطت الطابق الثانى كله ، محمولة
 على قوائم خشبية ترتكز على الأرض • لحظتها تذكرت
 بيوت مدينتى البعيدة • ذات الواجهات الخشبية ، أم من
 رائحة الغسيل المنشور فى الهواء وملح البحر • لو

أغمض عيني ، وأفتحهما ، وأجد الطرق والمتاجر
النظيفة والنساء الجميلات ، والبحر - لم يمر يوم الا
ورأيت ، في الليل أراه ، أخاف لو مشيت فأجد نفسي
فوق مياهه - أمشي بعيدا عن السور ، ربما امتدت يد
غليظة الأصابع ، وشدتني الى أعماقه ، ابتعد عن
وشيش الأمواج ، العمق المحسوس غير المرئي ، بدا
المبنى خربا عند عبوري حديقة الاستراحة الجرياء .
تيقنت أن هناك من يرقبني ، اقشعر ظهري ، طلعت
السلم الذي يدور حول المبنى ، الدرجات الخشبية مغطاة
بأوراق شجر جافة ، الصمت كالجبل كأن العالم خرب ،
مدينتي البكر واسعة العينين لم توجد أبدا ، مع أنتي
فارقتها منذ ساعات .

فجأة ظهر عبد المقصود ، كنت متعبا . عيناى
تكادان أن تنغلقا حزنا وتعبا . انه طويل الجسم
والعنق ، جامد الوجه ، ينظر دائما في خط مستقيم .
لم يرحب عبد المقصود بي ، نفس الجمود الذي قابلني
به الموظفون - لم أسمع من يقول : حمد الله على
السلامة . أنا أيضا بادلتهم نظرات الكره ، خاصة
الشاب المتأنق ، والعجوز صاحب الصوت الملىء
بالرغاوى . تبعت عم عبد المقصود وصداخ آليم في

قلبي ، لم أصدق أنني بعيد عن ساميه ، عن البحر ، وقد
أسندت الحقيبة أمامي . وأطرقت مدة براسي ، مغمض
عينني .

« يوسف »

- ١ - الدكتور جلال محمود مرسى
من ٦٨ - ٧ - ١٢ حتى ٦٨ - ٧ - ١٣
- ٢ - محمد فوزي عبد السلام
من ٦٨ - ٨ - ٢٠ حتى ٦٨ - ٨ - ٢١
- ٣ - يوسف عبد الرحمن
من ٦٨ - ١٢ - ١١ حتى ٠٠٠٠٠٠

- يعني مفيش حد في الاستراحة غيرى ياعم
عبد المقصود ..
- أيوه ..
- لو نزلت البلد دلوقتى ورجعت متأخر مين يفتح
لى ؟
- أنا دايمًا تلاقينى تحت . ما بنزلش البلد غير
قليل خالص .

— لكن السكة وحشة خالص يا عم عبد المقصود ..

— شوف يا يوسف أفندى • الحقه دى طول عمر

خلا ما حد هوب ناحيتها • والطريق خطر ، وأولاد
الحرام كثير •

— يعنى الرجوع بالليل مش مأمون •

— ده اذا جالك قلب وقدرت يا يوسف أفندى •

الأربعاء ٢٢ ديسمبر :

لا أعرف ما الذى يجرى لى لو لم أحضر كراستى
والقلم • فى مدينتى انقطع عن الكتابة بالشهر •
واليوم ألجا إليها مرتين • فى العصر كسرت عادتى ولم
أنم ، البرد يشتد ، لا أستطيع القراءة الا تحت
البطانية ، ثم •• لو نزلت البلدة ، مع من أقضى
ليلتى ؟ المقاهى قليلة وصغيرة • فى بلدتى لو جلست
على مقهى ، فى حى غير شارعى • لنظروا الى بريية
فكيف هنا والناس يعرفون بعضهم ، قال أبى ان أهالى
البلدة كالحريم ينتهون من عمالهم ، ويدخلون بيوتهم ،
فلا يخرجون منها الا فى صباح اليوم التالى • قال أبى
الله يبعدنى عن أولاد الحرام ، قلت وعيناي تدمعان

والجرس يرن رننته الأولى : سأقضى وقتى وأذاكر
 انجليزى ، وأقرأ الكتب ، ونصحنى بأننى لو استطعت
 أن أجد شايًا فى مثل سنى ، غريبًا ، ونستأجر غرفة أو
 شقة • وكنت أعلم لماذا يقول أبى هذا ، حتى لا يضحك
 على أحد ويوقعنى فى بنت قد تبعدنى عنه ، وتقطع
 ما قد أرسله الى العائلة ، وعلى العموم نساء البلدة
 كلهن لسن جميلات كفتيات مدينتى ، آه من الزحام
 والشمس الحلوة صباح الجمعة عند محطة الترام
 الرئيسية والهواء يهب مشبعًا بزرقة البحر ، عند
 المحطة رأيت سامية لأول مرة ، بلوزة بيضاء ، جونلة
 برتقالية ، جورب أسود ، حذاء أبيض كبير ، عيناها فى
 لون ، أى لون •• غسل النحل ، رأيتها كمطر خفيف
 ينزل على مهل فى يوم حار ، أوراق زهر صغيرة تكسو
 الرصيف فى أيام مارس الأخيرة • نجم شاحب بعيد
 قصى له عينان واسعتان ، وأنف دقيق ، وشفتان
 كالفرولة ، قلت لن أجد مثلها • لو انى خلقت بنتًا
 لشميت أن أكون مثلها • لفترة حاولت أن أقيم علاقات
 مع فتيات يسكن فى شارعنا ، لكننى ترددت ، وارتعشت
 قبل حديثى اليهن ، ونصحنى زملائى بالجرأة ، وهامى •
 لو ضاعت ، هذا الشيء الخفى الذى لا أراه ولا أدركه ،
 لقضيت عمرى بعيدًا عن جنس النساء ، حاذيتها وقلت

لها ان قلبى قد ارتجف عندما رآها ، واننى أشعر
بصدقتها لى من زمن . توقفت ، نظرت الى وابتسامه
على وجهها حيرتنى ، قالت آه وماذا بعد ، اصرار
عجيب انتابنى . سألتها عن اسمها ، فى اى سنة هى
قالت أولى ثانوى . ثم قالت اننى ظريف ، وطيب .
وفجأة كفت وطالبتى بالابتعاد ، قلت لها اسمى يوسف ،
واننى حاصل على دبلوم تجارة متوسط وساعمل
قريبا ، واننى آنوى دخول امتحان الثانوية العامة
فلا بد من الالتحاق بالجامعة ، وقلت يمكننا مذاكرة
الانجليزى سويا ، ضحكت وكررت اننى طيب جدا ،
وسألتها أهذا مدح أم ذم ، فطلبت منى برقة ألا اتقدم
معهما أكثر من ذلك ، بيت خالتها يقترب ، قلت اننى
انتظرها وأرجع معها حتى لو قضيت الليل هناك ،
ابتسمت وقالت لاداعى . تابعتها حتى اختفت ، وكررت
فى ذهنى عنوان المدرسة ، فجأة صحت بأعلى صوتى
انطلقت أجرى ، أجرع هواء البحر ، ألتهم الطريق
اللين . وددت لو أوقف كل من يقابلنى لأقول له
ماجرى ، ضحكت وداعبت أمى كثيرا حتى ظنت انى
شارب حاجه ، وقلت لها انك أعظم أم فى العالم .
عندما قابلتها ليلة سفرى ، دمت عينيها ، قلت لها
ربما غبت عنك شهورا ، قالت أسافر معك ضغطت

يدها ، الكازينو خال الا منا المصابيح الملونة تضيء فى
 انكسار ، وبقايا الأمطار فى منخفض من أرض
 الحديقة وغناء من بعيد ، قبلتها ، تخللت أصابعى
 شعرها الناعم كالليل . أقسمت لى بترية أمها أنها
 سترسل كل ثلاثة أيام خطاب ، ستقول كل شئ جرى
 لها ، وللمدينة ، وفى المدرسة ، اذا نزل المطر ، اذا
 هاج البحر ، لو دخلت السينما مع أبيها وزوجته ،
 فستحكى لى بالضبط مآراته من أفلام ، وعندما خرجنا
 كان للهواء طعم القرنفل ، المصابيح عالية . ضوؤها
 مخنوق كصوتها لحظة الوداع ، لو أنها معى لانقلب كل
 شئ . عدت أصغى الى أزيز الصمت . تطلعت الى
 السقف المرتفع جدا . عندما سألت عبد المقصود عن
 هذه المدفأة الرخامية . قال ان الانجليز كانوا يتدافعون
 بنارها . سأله هل حضر أيام الانجليز هنا ، قال انهم
 هم الذين بنوا الاستراحة لمهندس الرى ، وكنت واحدا
 من الذين وضعوا حجارة المبنى وأخشابه فوق أكتافهم ،
 ثم عينت فيه . صمت فجأة ، وبدا غير راغب فى
 الكلام . أسند الدورق وخرج . لأعرف مايفعله فى
 هذه اللحظة ، كأنه لم ينم ، انما يطل على من ثقب
 الباب ، ارتعش دمى ، نفضت مايتدافع الى ذهنى ،

تأملت الكتب محاولا اختيار رواية أقتل بها مابقى من وقت ..

«يوسف»

تمسك يده بحافة النافذة ، يمرق شريط الضوء اللامع يكشف العربات التى بدت مستطيلا واحدا ، مرور العجل فوق فواصل القضبان ، قطار الثانية عشرة قادم من الشلال الى القاهرة ، مفتخر لا يقف أبدا ، يوسف يتابع الرجال النائمين على المقاعد الزرقاء فى العربات ، آخرون يشربون الشاي ، يأكلون الجاثوه فى عربة الأكل ، يبدو عليهم ملل ، الرحلة طويلة ، لو يركبه يوسف ، بعد ساعات يقف فى القاهرة ، ثم قطار آخر ينقله الى البحر ، لكم يبدو بعيدا وبطيئا هذا الوقت الذى سيمضى عليه هنا ، حتى يحصل على اجازة ويسافر - يسيل الضوء ناعما فى الخارج - أضواء المدينة البعيدة خافتة تزيدها بعدا - فجأة ينتبه الى وجود رجال فوق القنطرة الحجرية ، هل عبد المقصود بينهم ؟ لا يرى الملامح ، أياديهم طويلة تلمس ماء الشرعة ، لا يجروا على اغماض عينيه ، لو يأتى بأقل حركة ربما تنبهوا اليه ، تنبعث من بعيد أصوات

مجهولة لم يميز منها الا ما يشبه اطلاق النار . هل له صلة بعمل الرجال . لا يعرف من أى جهة يجيئون ؟ يظهرهم فجأة ، ربما يخرجون من الاستراحة ، فجأة . يضيق كل ما يراه ، يتبخر الضوء الناعم ، تضيق معالم الحجر ، تحته فراغ وفوقه ، هل أصيب بالعمى المفاجيء ؟ هل يحيط به غرباء أقزام ؟ عمالقة ؟ لن يطلع عليهم النهار . هنالك ، لن يعيش اللحظة التى تلى هذه ، لن يدري أحد ، لن يحميه عبد المقصود ، يتحرك مشلولاً ناحية السرير ، تتقلص أصابعه ممسكة بالبطانية ، ينتزعها بعنف ، ويلفها حول جسمه ، يصطدم لصبع قدمه بالمقعد المدبب الحواف ، لو قطعوا لسانه اللحظة لما شعر بالألم ، يسند ظهره الى الباب . وحيد تماماً . نواة ملقاة فى فراغ حتى من النجوم ، والأرض ، وذرات الرمل ، وسامية ، وحراشيف النخيل .

— صباح النور . لا والله ما سمعتش . أصل النور يطفى بعد الساعة اتناشر . وابور البلد ييقف .

طلبني المدير ، سألني عن مجموعي في الدبلوم ،
وسرعتي في الآلة الكاتبة وأعطاني ثلاثة خطابات ،
طلب مني أن أنسخها ، شعره يلمع وأسنانه بيضاء يتكلم
برقة ، يتناول بين لحظة وأخرى قلمه الحبر الطويل
المغموس في محبرة نحاسية ، ليؤشر به كلمة واحدة
فقط ، كدت أقول له ان الاستراحة مزعجة ، وانني لن
أرجع الليلة إليها ، غير أنني ترددت ، ماهي مبرراتي ؟
خرجت من عنده ، وفوجئت بزملائي ينتظرون خروجي ،
سألوني عما قاله سيادته ؟ قلت : لا شيء . سكتوا ،
نظروا الى بعداء . جاء رئيسي الشاب ، أعطاني عشر
استثمارات صرف لأراجعهما . نظر الى الدوسيهات
الكثيرة أمامي . قال لا بأس اذا كان العمل كثيرا عليك ،
لكن هذا لا بد منه حتى تثمرن . قلت أبدا . فجأة
سألني عما قال المدير ، قلت : لا شيء . وفعل لم أر في
كلامه ما يستحق أن أكرره ، غير أنه اعتدل واقفا ، نظر
الى بعداء لم يخفه . كنت مجهدا ، وعيناي مليئتان
بالصابون الحارق ، وعندى ميل الى القيء . تخز قلبي
صورة سامية . بعد فترة جاء ، وأشار الى حقيبتى
الصغيرة ، قلت له عما بها ، كراستى ، ورواية لم

آتمها ، وثلاثة مظاريف خطابات ، ومحفظة نقودى ،
لأنى لأحمل نقودى فى جيبي . قال على مسمع من
الآخرين ، انه لا مجال لقراءة الروايات هنا ، وان
العمل جاد ، وانه هو نفسه لا يحب أن يحضر أحد
موظفيه روايات أثناء تأدية العمل الرسمى . عند
الساعة الثانية وقعت أمام اسمى ، وفجأة ، جاء السامى
العجوز ، وطلب أن أكلم المدير ، تلفت حولى غير أنى
لم أهتم بنظراتهم ، ودخلت الى سيادته ، ابتسم ،
ولاحظت بدهشة أنه قصير القامة ، بعكس ما يبدو أثناء
جلوسه ، قال : لعل العمل لا يكون ثقيلا على نفسى .
ارتحت . فارقتنى الرغبة فى النوم . كأنها لحظة
رؤيتى سامية قادمة من ناحية البحر ، قلت : أبدا ان
العمل لا يرهقنى ، قلت فى نفسى : بعد دقيقة أكلمه
عن الاستراحة ، كدت أقول له : أشعر بأننى أتكلم أول
مرة مع انسان منذ وصولى ، قال : هل تعرف أحد
الموظفين هنا ؟ قلت : أبدا . سكت لحظة ، وقال : أنا
هنا مثلك ، وربما أنت أعزب . أنا عندى أسرة مقيمة
هنا . وللأسف هؤلاء الموظفون لا يكفون عن الحديث عنى .
سكت ثم تابع : طبعا هذا شيء مزعج . ولكن لو عرف
ما يقولونه بالضبط سيصبح الأمر غير ذى أهمية ، كل
ما على أن أسمع ما يقولونه فقط ، وأنقله بالحرف الواحد

لا أزيد ولا أنقص ، وبهذه المناسبة • هل تكلموا في
موضوع يخصنى اليوم • قلت : لا أذكر ، لوح بيده ،
وبدا وجهه غير مهتم ، وطلب منى أن أنتبه من الآن ،
خريجت والرغبة فى النوم تعاودنى ، ذهبت الى المحطة •
جلست فوق رصيف المسافرين ، ثلاث بنات تلميذات ،
وقفن بعيدا عنى • ينتظرن أوتوبيس الديزل الصغير
الذى يصل المدينة بالقرى الصغيرة ، القريبة ، لم أنظر
اليهن ، أين هن من سامية ؟ بل أين البحر ، الطرق
اللامعة المتعطشة الى ماء المطر ، الأشرطة البعيدة
كجناحي طائر محدودب ، أين البهجة فى وعائى غسل
النحل المصفى ؟ تضحك ، تتقدمنى الى الترام ، ننزل
آخر الخط ، نمشى بجوار البحر الذى يتنفس بقوة ،
فجأة نجرى ، نجلس فى نهاية اللسان الجبرى ، أسند
رأسى الى فخذيها ، أحيطها بذراعى ، ربما رأنا أحد ،
لكننى أقطف ثمار الفراولة ، والكمثرى ، وأشرب عصير
المشمش ، اذ تهداً تأوهاتهما ، نتحدث عن آمال نرجو أن
تتحقق ، ليس من المعقول أن نقضى حياتنا فى هذه
المدينة ، ياسامية ، بعد زواجنا سنرحل الى السودان ،
الى أريتريا ، الى بيروت ، الى أوروبا ، نطوف المدن
البعيدة معا ، نجلس على المقاهى تحت سفوح الجبال ،
نخرج قلما وورقة ، نكتب تكاليف الرحلة الأولى •

بعض الاعتراضات ، غير أننا نتغلب عليها ، ها . . ريمما
تفكر سامية فيما قلناه الآن ؟ هل يعرف هؤلاء
الموظفون أى مشاريع صغيرة رسمناها معا ؟ هل يدرى
المدير بأحلامنا ؟ كأن دنياهم تتوقف على معرفة ما قالوه
أو ما قاله ؟ يشور بى الخاطر أن أركب أول قطار الى
مدينتى ، الى سامية ، وأسند رأسى على صدرها وأبكى ،
أبكى بلا دموع . قمت حاملا حقيبتى الصغيرة ،
الرصيف خلا من الركاب ، والفتيات رحلن الى قراهن
البعيدة ، وسامية خرجت من المدرسة الآن .
« يوسف »

★★★

— أنت فاكرك كلمتك فى ايه يا عم عبد المقصود ،
ايه رأيك تبات معايا . اديك شلن كل ليلة . السريرين
واحد ليه . وواحد ليك . كل ليلة شلن . آه والنبى .
أحسن الأوده واسعة والبيت فاضى ، والحنة كده شكلها
يخوف .

★★★

لو معه راديو لسمع الأصوات المنبعثة من العالم ،
هنا بيروت ، هنا لندن ، اذاعة الجمهورية العراقية من
بغداد ، محطة الاذاعة العربية من موسكو ، عدن ،

الجزائر ، تختلط الأصوات ، تضيق النداءات ، حين حاد
يتحرك فى دمه ، أو يسمع أغنية من قرب ، أصوات
الرجال ستبدأ بعد قليل فوق القنطرة • منذ ساعتين
دخل عبد المقصود • تلفت حوله ، عيناه فحصتا كل ما فى
الحجرة ، كأنه يدخلها أول مرة ، ثيابة المعلقة فوق
المشجب ، الحقيبة التى مازالت مفتوحة ، الحذاء ،
الجورب ، الفوطة الملونة بخطوط سوداء ، المشط ،
سأله عما يفعله بالكتب ، سكّت • • ثم سأله عن سنه ،
فقال يوسف : تسعة عشر عاما • قال انه صغير • تمدد
ملتحفا بالبطانية ، أنهى الحديث فجأة ، لا يدرى يوسف
ما الذى يفعله الآن ، يطفىء النور أم يبقيه ،
عبد المقصود لم يطلب اطفاءه ، لا يعرف هل رجعوا الى
القنطرة ، لكن ربما يطردهم عبد المقصود • يظن أن
يوسف يرصد حركاتهم فينالهم ضرر • قرض يوسف
شفتيه ، برغم أن مظهره ينم عن نوم عميق ، غير ان
احساسا خفيا يقول ليوسف : عبد المقصود لم ينم ، لو
نظر الى عينيه من الناحية الأخرى ، لراهما مفتوحتين •
خفت الضوء ، بعد قليل ينقطع ، منذ لحظات خرجت
حقاتل السينما الأخيرة ، أربع مرات دخلها مع سامية •
تقول لزوجها أبيها انها ستذاكر مع صاحبته ، تاهت

نظراته على السقف ، وهو لا يعرف ما الذى تفعله سامية
الآن .

السبت ١٢/٢٥ :

أربعينى الليلة عبد المقصود ، ظل ساعة كاملة
ينظر الى ، متجمدا كالجر . قطع ماكنت أود أن أسأله
عنه . حياته ، نزلاء الاستراحة ، وحدته . وفى الهواء
تصاعدت رائحة عرق لم أشمها فيه من قبل ، بالرغم
أنه تمدد من ساعة موليا وجهه الى الحائط . فهو يرقبني
الآن . أذناه تسمعان حركاتي ، تحصيلان دقات قلبي ،
أنا تعب ، خطابات سامية لم تصلني بعد . كل يوم
يوم أسأل مدير البوطة قبلى البلدة ، أنا حزين ، وآكاد
أبكي ، لا أعرف لماذا يبدو عبد المقصود غامضا ، ولا أعرف
لماذا يبدو عبد المقصود هكذا .

« يوسف »

الساعة الثانية صباحا تقريبا . أقصى عمق لظلام
الليل ، يوسف لم ينام ، حتى قطار الثانية عشرة لم يمر ،
يصر السرير فجأة ، يكف الهواء عن دخول رئتيه ، حفيف
جلباب عبد المقصود لم يعد ممتددا فوق السرير .

ما الذى ينويه ؟ هل صمته ، اخفاء حركاته ، يخفى
أمره ، ينزل يشارك الرجال فوق القنطرة ، لا يتجه الى
الباب ، يقترب منه ، لحظات الكابوس • صراخه المكتوم
من الأنف ، وشلل الجسم ، وصياح أبيه • اصحى •
اصحى - ولو ، فمن يهرع اليه هنا • • من يهز جسمه
حتى يفيق ؟ من • • من ، يصر السرير ، ليس كابوسا ،
عرق عبد المقصود يملأ أنفه ، عبد المقصود يلامس
جسمه ، يده الخليطة الحشنة تسد فمه ، أنفاسه ساخنة
لزجة تقشعر ماوراء آذنيه ثقل جسمه ، اليد الأخرى
تمتد الى بنطلون بيجامته ، الحجرة تغرق فى زيت لزج ،
لو يصرخ • • لكن من يجيب لو يزعق ؟

« كنت تقول لى ، انك لو نظرت الى وجهى لشعرت
بحزن لا يحز فى قلبك ، انما يشحن نفسك بما لاتدريه
أنت ، وسألتك كيف تحزن اذ تنظر فى وجهى ؟ قلت
انك حائر ، وهنا فى الغروب كل ليلة اذهب الى صاحبتى
سعاد اذاكر معها ، وأرى وجهك أكثر من مرة فى
الطريق • • عند منحنيات الشوارع ، أمام محلات عصير
الفواكه ، أتذكر مشروعاتنا للسفر ، وآتخيل نفسى
أننى سافرت وحدى ، الى بلدة صغيرة عند حدود

العالم ، شوارعها مبلطة ، وكنيستها قديمة ، أجلس فى
مطعم له شرفة خشبية ، وفجأة أراك تعبر الطريق ،
ولا أكون متوقعة رؤيتك ، فاقفز من مكانى ، أناديك ،
تدهش أنت اذ من يناديك بالعربية فى هذا المكان ؟
تفتح ذراعيك ، تدور فى الهواء • أسألك ما الذى
جاء بك ، وتسالنى ما الذى جاء بى ؟ ولاتسعنا الفرحة
فنتمنى لو تحولنا الى طائرين صغيرين ، وطرنا الى أعلى
الجبال المغطاة بالثلوج • • آه • • هل تذكر عندما كنت
أتقدمك فى نزول سلم السينما الطويل الحديدى
المفروش بسجاد أحمر ، كنت تقول لى • • أنت الآن
تنزلين سلم البوينج ، ونخرج الى الشارع ، تقول اننا
اجتازنا الجمارك ، فلاشئ معنا نحاسب عليه ، ثم تشرح
ثم تشرح كل ماتراه • •

يوسف

فى اليوم الواحد أفكر فيك يومين • هل تذكر
الجمبرى ؟ هذا الطريق الطويل المفروش بالظلال •
ساعات يخيّل الى أن المدينة خراب بدونك ، لم أعرف
قسوة الفراق الا لحظة موت أمى ، ورحيلك أنت ، سأكتب
لك كل ثلاثة أيام ، ربما كل يومين ، وربما كل يوم •
واذا ما كتبت لى ، فلاتكتب أقل من أربع صفحات

فولسكاب ، لابد أن أعرف كل كبيرة وصغيرة عنك .
أكلك ، نومك ، شربك ، أصحابك ، وقتك ، كل شيء
حتى أهدأ ، حتى أستريح ، وأخبرني متى ستحضر .

المخلصة لك

سامية

الأحد ١٢/٢٦ :

أكلت في المطعم الوجيد ، سألت الرجل عن مسكن
خال حتى لو كان جعرا . فقال ان مأمور المركز كان
أولى ، وانه لا يستطيع احضار عائلته لأنه لا يجد مسكنا ،
ونصحني ألا آتعب نفسي ، فأهالي البلد لا يقبلون عزابا .
في العصر خنقتني الغيوم ، همت على وجهي لآجرؤ على
اخراج خطاب سامية ، منذ جئت أنتظره ، عندما قرأت
خطها الرقيق خجلت من سطورها ، وبكيت . وحقدت
على لون الضوء المتسلل في الفراغ ، والنوافذ الكبيرة
المغلقة ، والرجال الذين يحملون أكياس الفاكهة الى
عيالهم . أغرقني النهر حزنا كالتحاس الأزرق ، واذا
رأيت بنات المدرسة الثانوية ، وثيابهن الرمادية ،
تذكرت سامية ، وارتعشت ، كأنها تنظر الى من مكان
لا أراه ، بعيدة عني ، لكنها تلمحني من مكان خفي ،

وجهها في الفراغ • أينما رحت ينظر الى برثاء ، كدت
أرمى نفسي في النهر • كدت أضرب المدير القصير
عندما طلب مني في حدة أن أنقل اليه ما يقال عنه
حرفيا ، وأن أعتبر هذا أمرا ، بدا لي أنه يعرف تماما
ماجرى ، وأنه على صلة خفية بعبد المقصود • أما
الموظفون فنظروا الى بسخرية من وزراء الدوسيهات ،
طلب لي أحدهم شايًا ، ولم أدر سبب الود المفاجيء ،
كدت أرفضه ، وفي كل رشفة شعرت بنظراته • ها أنا
أسقيك شايًا • أنا لست أقل شأنًا من عبد المقصود طبعًا ،
آخر النهار سألت عم محمد عن مكان خال ، فقال :
هذا مستحيل ، حتى الباعة ، خادم المقهى ، هزوا
رؤوسهم ، كلهم يعرفون ، حتى الرجال - المحملقون الى
من فوق مقاعد المقاهي ؟ المتجهون الى المحطة ليركبوا
القطار • كلهم يعرفون ، مهدوا لما جرى ، لو أعود الآن
الى مدينتي ، يعرفون فنورا • قلت فلأنم الليل على
رصيف المحطة ، أتأمل القطارات التي تجيء ، ولا تقف
• شربت شايًا ، امتدت مخالب طيور صغيرة تنهش
كبدى ، نزول السواد يتمتعن من العودة الى
الاستراحة ، مقدمات المغيب كالطاعون ، تطردني
البيوت الى الخلاء المؤدى الى غابة النخيل •

يوسف

« .. أنا عارف كويس انك دورت على لوكاندة طول اليوم . وكمان فكرت انك تسافر ، ولما يئست فكرت انك تنام على رصيف المحطة ، لكن البوليس لازم يمسكك . أنا عارف انك مش حتلاقى . حتى لو لقيت ، فمش ممكن تسبب الاستراحة برضه . انت هنا . عندي . أنا مش مخليك تحتاج حاجة أبدا . بس تقول لى على كل اللي انت بتعمله . تقراالى الجوابات الى بتبعيتها لأبوك وأمك .. وأصحابك . اذا دخلت فيلم تحكيه لى . أنا من سنين مادخلتش سينما . وبعدين الكتب الكثيرة الى انت جاييها معاك دي . فيها ايه . أنا يايوسف من أربعين سنة هنا . عايش على أمل انه واحد زيك ييجى . يمكن اليوم الى انت اتولدت فيه . أنا كنت باتمنى الامنية دي . أنا واثت من هنا ورايح حتة واحدة . الاستراحة كلها تحت أمرك حتى لو انتهت مدتك الرسمية . حتفضل معايا ، أنا هنا الكل فى الكل . ياما قضيت سنين مادخل على أحد غير الصراف ييجى يسلم لى الماهية . شوف . حتى المديرية ماعرف طريقها فين . هما الى يعرفوا طريقى .. »

« .. أقول كل شيء ولا أقوله ، الآن لم يبق لى الا أنت ، خطابى اليك يا حبيبى . هو الشيء الوحيد الذى

أكتبه على رصيف المحطة ، ومن يدرينى ربما فتحوه ،
وأخذوه ليعرفوا ماقلته لك ، أما خطابات أمى وأبى
وأصحابى فأنا مطالب بتلاوتها أمام شىء لن أقول لك
ماهو ، إنما .. انه قوة لا بد أنا ملاقى حتفى على
يديها ، الناس هنا ياسامية غير الناس ، والعيون غير
العيون ، الحياة غير الحياة ، كدت أبكى عندما أدركت
فى لحظة بعينها أننى لم أفكر فيك يوما كاملا ، ملامحك
بدت لى باهتة ، أنا لا أكذب عليك ، بل أصارحك
تماما ، كدت أجرى لاطما وجهى ، صرعى الحنين اليك
حتى لو أرسلت صورتك الى فلن أستطيع الاحتفاظ بها .
ولا تعليقها فى مكان ظاهر ، هذا الشىء لو رأى رسمك ،
أخاف عليه منه ، ربما تعقبك ، ربما ذهب اليك فى
مدينتنا . ربما قضى عليك كما يقضى على ..»

— يوسف .. هات فلوس عشان الغدا . اسمع .
هات الى معاك كله . انت الفلوس حتمل بها ايه ،
ما تخليش معاك غير المصروف ، وده خده منى كل
يوم .

الاثنين ١٧ يناير :

منذ مدة لم تصلنى خطابات من سامية ، حيرها
ردى ، الآن أخاف عليها . حتى لو عدت الى المدينة ،
حتى لو نقلت ، حتى لو رجعت ورأيت البحر كل يوم ،
هل يعود ماكان بيننا ؟ - هل نجرى بنفس الحيوية ،
نضحك ، نأمل ، نتبادل القبلات ؟



الأربعاء ١٩ يناير :

صباح اليوم طلبت المصروف من عبد المقصود ،
أخرج محفظته الكبيرة . قال ان الدنيا برد ، وقال اننى
صرخت مرتين أثناء نومى وأيقظنى ، كان يقف على
بعد متر منى ، عيناه ثبت السواد فيهما ، فى الخارج علا
ضجيج قطار ، تقدم منى ، وأمسك عنقى . يده دافئة ،
أنفاسه مشبعة برائحة الدخان ، لم أتحرك ، قيدت
مكانى بآلاف القيود ، أحاطنى بذراعه ، قال انه لم يكف
طول الليل عن الحلم بحسنية التى تمنى زواجها من
عشرين سنة ، ولم يقبل أهلها ، قال انه لن يدعنى
أذهب الى المصلحة ، سحبنى الى الحجرة مرة ثانية ،
وكانت الشمس ضعيفة عاجزة . وكان يرتجف وريقه

يسيل ، لايعنى - ما الذى يقولونه اذا لم آذهب -
وهمس انه اليوم سيطبخ حماما محشوا بالفريك ،
وعلا ضجيج قطار .

يروح المدير فى الحجرة ويجىء ، يده معقودتان
وراء ظهره ، يثنى شفته السفلى ، يعضها يتفخ الهواء
ساخنا من فمه ، يستدير الى يوسف كأنه يود لو يسأل :
هل هذا صحيح ، محروس أفندى قال عنه هذا ، كأنه
لايصدق . لكنه يثق بكل مايقوله يوسف الآن ، بعد
عدة أيام من نقله كل كبيرة وصغيرة الى سيادته ، شد
على يده ، تأكد له صعة مايقوله يوسف ، كيف - يوسف
لم يعرف ، ربما يتولى أحدهم نقل الأخبار اليه ، ثم
يقارن ما يصل اليه ، يدور المدير فجأة ، يقسم أن ينقل
محروس أفندى الى قرى الضفة الشرقية من النهر -
يخرج يوسف ، يطلب قهوة ، لايبالى نظراتهم ، يطل على
الميدان الصغير من النافذة المجاورة له ، حقا . . أى
جراة فى تبليغ النبأ الى سيادته ، لكن هذا ماسمعه فعلا
من محروس أفندى ، اليك المدير لايملا عين امراته ،
لكن هل رآها واحد منكم . هل رأى الجوع المثل من
عينها ؟

•• حتى اننى أرجو أن تعذرني ، ذهبت بالخطاب
الى صاحبتى سعاد ، فهى تعرف كل شيء بيننا ، لكنها
لم تفهم لم تعرف ، قالت ربما حبيبك فى ورطة ، لكن
الخطاب به ماهو أشنع من ذلك • ماذا جرى يا حبيبى ،
هل يهددك شخص ما ؟ هل اختطفتك عصابة ؟ هل أذاك
المدير ؟ ماذا جرى ؟ أين خطط مستقبلنا ؟ أين
ماتواعدنا عليه ؟

★★★

فى الصباح ، أعطاه المصروف وهو متمد كالثقل ،
فمنذ أربع ليال يرقد من الغروب حتى خروج يوسف
لا يتحرك ، آخر الليل بدا متوحشا فاقد الوعي ، ألمه حتى
صرخ ، بالأمس كاد يوقظه ليبادله الحديث ، فالوحشة
شديدة ، ولم يعد يقتل الوقت فى القراءة ، كوم
عبد المقصود كل الكتب فى الحجرة الأخرى ، لأنها كما
يقول تشغل يوسف عنه ، أطل يوسف من النافذة غير
أنه لم يجد الرجال الذين يجيئون الى القنطرة ، هاهو
يعبر الطريق الخالى الى المقهى ، يقول الخادم ان البلدة
لم تر يردها كهذا ، منذ لحظات توسط الميدان الكبير •
تعب فجأة • البيوت حوله ، صامتة ، كالحة •• كان
الحجارة لها عيون وأذان ، انه وحيد حتى النخاع

واليافوخ ، لا وقع أقدام يسمع فى المدينة الا له ،
جرى فى الميدان ، الأهالى ينظرون من وراء شيش
النوافذ المائل فى اتجاه الطريق . . كاد يصرخ ، مطالبا
أى أحد ، أن ينتزعه من هذه الشوارع ، تلك البيوت ،
المقهى حوله خال ، كل ما جرى يبدو له وكأنه يجرى
أول مرة ، خطاب سامية الحزين مندفون الآن فى درج
مكتبة ، الشيء الوحيد الذى أخفاه ، من يدريه ، ربما
يعرف عبد المقصود كل شيء ، فمند ليال سأله بالحاح عن
علاقته مع النساء ، يوسف يتساءل بمرارة ، لماذا يخفى
عنه الخطاب ؟ لو تجيء سامية الآن ، لا آمال تبنى ،
لا حديث خافت مهموس يدغدغ ما وراء الأذن ،
لا قبلات ، لن يطبق البحر على جسميهما كالخيمة اذ
يفوصان فيه حتى العنق ، لن يقفا أمام فتارين
الأثاث ، هذا الركن يصلح فى الانتريه . يوسف . .
الصالون لابد أن يكون مودرن ، كأنه يدرك ضياعها
أول مرة . . الآن سامية غريبة . أمه ، أبوه ، كل أيامه
البعيدة فى مدينته المغسولة بماء البحر ، عض زاحة
يده . . يخاف أن يرى سامية فجأة ، ستعرف كل شيء .
تهرب . تجرى ، فربما أخذها من يدها ، وذهب بها
إليه . فعلا . ضاع كل شيء .

يوسف يقوم واقفا ، الابز المديبة تنفذ الى كليتيه ،
على الناصية ، دكان لبيع أدوات الحلاقة زجاجات
العطّر ، الأمواس أنواع ، المقابض الحمراء ، السوداء ،
الزجاج متسخ ، أصابع قدميه تتوتر داخل حذائه ،
تتشابك يده ، ربما رآه عبد المقصود ، يسأله لماذا
يحملها ؟ يعرف بسرعة ، ربما يرقبه الآن ، ربما صاحب
المحل يعرفه ، يضربه عبد المقصود • يمزقه ، يرميه
فى التربة ، لن يدري أحد ، الحيرة تشطره ، يزداد
الضوء قتامة ، والبرد ينفذ الى رئتيه ، غمامة كبيرة
تزحف فوق البيوت ، يرفع عينيه ، تحتوى وجهها مشبوه
الملامح ، جاحظ العينين ، كاد يعرف صاحبه ، لولا أن
الريح أزاقتها بسرعة ، يخرج صاحب المحل فجأة •
يقول وعيناه محمقتان الى السماء : المطر لا ينزل هنا
أبدا •

ناطق الزمان

مفتتح

فى آخر الزمان ، يقوم المهدي المنتظر ، ناطق
الزمان ، يجرى الى الدنيا بعد أن يبلغ أمرها حدا لا حد
يعدده ، انه يعيش فيها ، لكنه خفى لا يبين ، وفى يوم
معين ، لحظة بعينها ، قيل انها ساعة شروق الشمس ،
يظهر ، فيراه أولا الصفوة ، ثم يعم عندئذ ، يقوم
جنده من كل مكان ، من فجاج الأرض ودروبها يجيئون ،
آمنين ، موحدين ، فيملك الدنيا شرقها وغربها ، كما
ملكها سليمان الحكيم ، وذو القرنين ، قال الثقة انه لو

ظهر ثم اختفى ، وبقي فى عمر الدنيا يوم واحد ،
لأطال الله عمر ذلك اليوم حتى يبعثه رب العالمين ،
حينئذ تمتلئ آخر أيام الدنيا عدلا وسلاما ، من بعد أن
ملئت ظلما وجورا .

جمع الكلمات

هدأ القطار سرعته ، انزلق سامى من فوق السطح
الى فراغ ما بين العربات ، قفز الى الأرض ، الهواء
بارد ، يقول ان الشتاء بانتظاره ، باع كل شىء من
أجله ثم فارقه . سامى نهار هجره الضوء . فى الميدان
حركة لياالى الشتاء ، أصدقاء يفترقون ، جنود عابرون ،
مواصلات تشح فتنقطع أوصال المدينة ، عليه أن
ينتظر ، يبحث عن مولاه من جديد ، سيجمع الحروف
يضاهى الأرقام ، يتبش ضفتى النيل بآبرة ، وحتما
يلاقيه كما قابله ، سامى الآن وحيد حتى مرارته ،
بلا بطاقة شخصية . نزع كل أوراقه ، ربما أذاقوه
العزلة ، سجنوه ، وأين مخلصه لينقذه ؟ أين ناطق
الزمان ، من يجمع كلماته ليوصلها اليه ؟ سيختفى فى
الزحام ، يمشى الى أضرحه الأولياء ، بعينيه يسأل
الناس عنه ، بارهاف أذنيه ، بالذكرى المتبقية ، يزور
أمه ، يرثيها ، ينثر القرنفل الحزين فوق قبرها ،

يطلب منها أن تساعد ، يسألها كيف تجلى له ؟ رافقه ،
أضاع ما أضاع من أجله ، ثم غادره .. كيف ؟

أول الرؤية

سامى لم يفه بحرف ، بالدموع كاد يبكى ، عاش
اللحظة الأولى ، رعشة الميلاد ، خروجه اليومي
الصباحي ، السماء زجاجية اللون ، سور باب النصر ،
عربات نقل الرمال ، رآه قادما من ناحية جبل الدراسة ،
قرص الشمس يلمس حافة الصحراء ، كل شيء أعد ،
ليس صدفة أبدا ، رآه في خفقات النهار الأولى ، في
اندفاق اللبن من اناء الى اناء ، سامى يعرفه ، هذا
ماقرأ عنه ، قال مقتربا منه :

— أنت أنت ..

في الطريق يخطو الصباح طفلا واسع العينين ،
رقائق هواء ..

— لن تفارقني ياسامى ، مادمت عرفتني ، فلا
يحدث هذا كثيرا في الزمان ..

أتركني في غرفتك .. أمض انت الى رزقك فانا
لست محدودا بمكان ..

» يبدأ ميلاد سامى ، فكر في اللهجة التي يواجه

بها صاحب المتجر ، هل يتحدث اليه بأنفه وكبرياء ؟ أو
بلا مبالاة ؟ كتم مافى نفسه ، لم يبيع ، ستجىء لحظة
معينة ، يدرك فيها صاحب المتجر ، وزملاؤه البائعون ،
والزبائن ، ما أدركه هو ، يعلمون أن سامى أول من
اتبع خطى ناطق الزمان . فى المساء عبر كوبرى
الجلاء ، تعاوده لحظات قديمة ، تدفق دما ساخنا طريا ،
عودته الى البيت ، يعرف أن أمه بانتظاره ، أبوه سيصل
بعد قليل ، خروجه لمقابلة هدى ، حركة يدها ، لون
نظرتها ، رقة وجهها ، مشروعاتهما المشتركة ، تخيلهما
شكل البيت الصغير المنتظر ، وقوفه أمام الهدايا ،
يتمنى لو اشترى لها ، هذا القماش ، تلك الحقيبة ،
يسرع الخطى ، يقابلها ، تضحك فرحة ، آه من حيرته
فى ليل المدينة ، البيوت قضبان سجن ، أين يذهب ؟؟
يود لو يوقف أى رجل مار ، فقط يتحدث اليه . فترة
ما بين السابعة عشر وعامه العشرين ، بسرعة مرت ،
لم يعشها ، أين راحت ؟ كيف ؟؟ كأنها ستعود من
جديد ، فيض الآمال ، اعداد المشاريع ، لحظات ماقبل
النوم ، الآن . . . يعرف أن أيامه العطشى كارض جفاها
التيل ، ستنبض من جديد ، بكل ماراح ، ماضع ،
صوامع الغلال الفارغة المنخورة تمتلئ من جديد ، يشم
رائحة التين فى الطريق الضيق المحفوف ، بمجرى

النيل فى قريته النائية ، يمشى مع أبيه • سامى لم يزر
بلدته منذ سنين ، بعد اليوم ، لن تعصاه كلمة «لو» فى
ميدان التحرير ، أمام محل بيع الألبان ، تتصدره
زجاجة لبن كبيرة ، آلة عصير مانجو ، مناضد ، همس
شفاه ، قاوم نفسه ، آه لو صرخ ، يطلع فوق برج
القاهرة ، يدور بهليوكبش ، يشق فراغ ما بين
الأهرامات ، يعبر الكبارى الصغيرة المصنوعة من
أخشاب النخيل ، يطوى مدقات الجبال ، يزعم • •
أبشروا • • ظهر قائم الزمان • • ناطق الزمان • • جاء
العدل والسلام • •

★★★

يطل من عينيه أمان ، آه يا أب اليتيم ، يا عائل
الشريد ، يا منجى الغرقى ، نطق فارتجف سامى :
- أحسنت • • لكل لحظة أوانها المحتوم • •

بينهما صمت شفاف نقى كماء الورد ، أصوات
العصر تجىء من الحارة ، يسمعها سامى أيام عطلته
بمفرده ، ثرثرة النساء ، نداءات الباعة ، يتأمل ايقاع
أصواتهم وتنوعها ، «ياخس يا حلو قسوى» • «أصلح
بوابير الجاز» • «الوداع يا ملوخية» • أوان بعيدة
تسقط ، موقد يشتعل ، صفارة نائية ، مجهولة المصدر ،

رفع عينيه ، وجه ناطق الزمان ، لا يمكن من خلاله
تحديد العمر ، ربما قال ناظر ، انه مليح ، شاب ، ربما
أكد مجرب حكيم ، أنها ملامح شيخ جاوز الثمانين ،
محير ، متى مولده ؟؟ هل لمثله أم عانت آلام المخاض ؟؟
- طالت رحلتى .. غدا يأتى طوال السنين ؟؟

الليلة ، يتم سامى عامه الثلاثين ، من منتصف
الليلة ، يتحدد العمر ، أيام رمضان الأخيرة تقول أمه ،
مانصومه لن يتكرر ، أيام شبابه أيضا ذابت ، قال
ناطق الزمان انه سينزل الى العالم . خفى . واضح .
ظاهر . باطن . سيعرفه المقربون . بصيته يزعمون ،
الأمر فى هذا الزمان صعب ، عسير ، منذ مئات السنين
انتقل بين القرى وأسواق المدن ، عبر جبال الثلوج
البعيدة ، الطرق الصحراوية المؤدية الى الواحات ،
بعضها لا وجود له الآن ، لم يطلب منه أحد تصاريح
سفر ، واذا استبد الفضول بمخلوق فهو طواف لا يهدأ
له قرار .

- أما الآن .. فالحذار .. الحذار .. كثر
الأعداء ..

سامى الآن يشم رائحة أبيه ، عودته كل ظهيرة
بأقراص الطعمية الساخنة ، أمه تقعد أمام باب الحجرة ،

ترتق قطع القماش القديم ، تصلها ببعضها ، بتان تحاول ادخال الخيط في ثقب الابرة ، سامى يشد ثوبها ، تقول : اسكت ياسامى . اسكت يا حبيبي . قال ناطق الزمان ، ان الاعداء لا ينتهون ، منذ أن طاردوه زمن الخلفاء الأمويين ، ثم العباسيين ، اضطر الى الاستتار فى بلدة صغيرة ، رقيقة ، كقصيدة شعر ، نائية فى الشام ، اسمها سلمية ، منها انطلق دعائه ، غير أن الخلاف دب بين الأتباع ، ظهر أكثر من واحد فى المغرب ، فى الهند ، فى مصر والسودان ، ادعى كل منهم أنه هو ناطق الزمان ، لكنهم خابوا جميعا ، بقى هو مستترا ، سامى ينظر الى مولاه ، يسمع اقتراب الليل ، يرى أعوامه الثلاثين ، زمان .. زم أبوه شفثيه . فرح بنجاح ولده ، قال انه سيبيع ما أمامه وما وراءه ، سيحمل حقائب المسافرين ، يقشر عيدان القصب فى مخازن محلات العصير . المهم أن يتم سامى تعليمه ، سامى دخل الجامعة ، بالتحديد كلية الطب ، ربما جاء تعيينه طبيباً لمستشفى البندر ، يمتطى الحاج سلامة أغنى مشايخ البلدة ركوبته ، يمضى الى المستشفى ، الثقة تملؤه ، الطبيب هو سامى ابن هارون القط ، أى والله هارون عرف يربى ، يقول سامى :

- يمكنني أن أعمل لأساعدك .. وفي نفس الوقت ..

يصيح أبوه : أبدا ، أبدا -

همس سامي وعيناه تحتويان ناطق الزمان :

- أينما ذهبت تتحقق الأمنيات • لن يتحسر انسان •

يقترّب الغروب ، لا يطيق سامي البقاء في حجرته ، كل ما يراه ، يتدفق اليه • حزين • يفصله عن العالم بحر صعب العبور ، مولاه يتمتم بأذعية تنأى بالوحشة ، أصابعه تمسك طرف ردائه الأبيض ، في أي عصر نسج ، من أي قماش هو ؟؟ قال ان غربته لن تطول ، لن يرى أكثر مما رآه ، هنا في مصر منذ أربعمائة وسبعين عاما ، قبض عليه العسس ، ظنوه من العربان المفسدين ، رموه في سجن الجبل ، قضى فيه مائة عام ، وازدادت تسما ، تعاقب عليه أجيال من الحراس ، استسلم للقضاء ، أليست عذاباته بعض مما يجري في العالم ؟؟ كاد سامي يبكي ، يسمع نواح أمه •
ياليتني قبلك •

طفشت في الحارة ، تشد ثياب النساء ، تهيل التراب فوق شعرها ، تعض نفسها ، تقول للرجال

العابرين • راح أبو سامى • راح من يعولنا • راح
رجلى • من يعولنا ؟؟ رجلى ؟؟ الفاظ توجع سامى ، ينزل
ثقل فى دمه ، تعريشة الأسيرة انكسرت ، الدقة الثوت ،
الربان هوى فى قاع اليم ، النخاع انسل هاربا من
تجاويف العظام ، طوال شهور تلت ، أمه تلقى أحزانها
فوق أمور صغيرة وقعت ، لو أنه لم يذهب الى أقاربه فى
مصر القديمة لعاش ، لو أنه رأى اخته نظلة ، راح
محسورا لم يرها ، لو أخذ اجازة ، لم يعرف الراحة
أبدا ، لكن مانسبة هذا الى مارآه ناطق الزمان ؟؟
عذابات الكون منذ أن كانت الأرض صغرا ملتهبا ، ثم
نبات وحشى خال من الانسان ، الآن الليلة ، تولد
الأمال ، تمتلئ الوديان خضرة ، تمطر السماء فى
أفواه المحتضرين عطشا •



• اذن • أنت تعرف اليوم الذى رحل فيه أبى •
ليس هذا فقط ، انما يعرف رعشة قلبه عندما
عرف هدى ، لحظة مجيئها الى المتجر تشتت فستانا
بسيطا ، تلاقى عيونهما ، ادراكه مرفأ الحنين ، مولاه
يعرف طوافه الليلي ، هدى موجودة فى كل فتاة عابرة ،
تطل عليه من مكان خفى ، معه دائما ، يتخذ فى جوف

الليل قرارا ، أن يمشى من الحسين حتى كوبرى الجلاء ،
يقف عند الحد الفاصل بين محافظتى القاهرة والجيزة ،
يتأمل أضواء العوامات الخافقة ، دوامات التراب الصغيرة
والورق ، يلفظ اسمها قرب الفجر بصوت عال ..
هدى ..

— مادمت أتبعك يا ضيا عيني يامولاي .. فلن
أقطع الأمل فى رؤيتها ..

هز الامام رأسه ، ضوء الطرقات هامس ، تنذر
السماء بهلاك مجهول ، رآها الامام منذ ألف سنة ،
ترى ، ماذا جال بعقول أهل الأزمان البعيدة ، وهم
يتطلعون الى السماء ذاتها ، ما أثارته كل لحظة من
أحلام ، الهمس المتبادل ، ناطق الزمان عرف الغروب
فى قري الهند الفقيرة ، رآه فى الاحساء ، فى نجد ، بين
ربوع الشام والأناضول ، بلاد القفقاس ، بحر الزنج ،
والبحر المحيط ، تجاوزا شوارع الضجيج ، خرجا الى
الخط الحديدى المار قرب الحقول ، المطار الصغير ،
الأنوار الزرقاء على جانبي المر ، تنفذ رائحة الليل ،
أنفاس الزرع ، الوقود المتساقط بين القضبان ، المولى
يتطلع ، يكشف حجب المستقبل ، يرى مدنا أخرى

منشورة فى أركان العالم ، جزرا صغيرة يسكنها الأعراب
والصيادون - -

البحث وراء التعابير

المراكبية لا يأخذون معهم أحدا ، لكن ريس هذا
المركب عندما رآهما أفسح لهما مكانا رحبا ، قال
لناطق الزمان ، انه انتظره طويلا ، عند المنحنىات الحادة
فى المجرى ، فى جرى الموج ، راح يغنى ، لصوته رائحة
أرض الشراقي ، المتشوقة الى الماء ، يذكر امرأة بعيدة
وعيالا صفارا ، يذكر مذاق البتاو البيتى ، الحليب
الصباحى ، رائحة خبيز الظهيرة ، رحلته تستغرق شهرا
كاملا ، ينقل الحبوب ، الغلال ، أواني الفخار ، سامى
يرقب خطو الليل ، الليل لا ينزل من السماء ، انما يطلع
من النيل ، من الضفتين ، من هسيس الحشرات ، ذرات
الغبار التى تثيرها أقدام المارة فوق الطرق الريفية ،
يترامى اليه تصفيق وغناء ، ربما فرح فى قرية نائية ،
تدوم الريح فتطوى الزغاريد وطلقات الرصاص ،
ناطق الزمان يفوص فى طبقات الظلام بعينيه ، أينما
ذهب يدركه البعض ، يجهله آخرون ، أو يتجاهلون ،
ربما أدركهم الأعداء المترصدون ، فى كل مكان
ينتشرون ، قال الامام انهم فى البحار الكبيرة ، فوق

ثلوج الجبال ، فى ناطحات السحاب البعيدة ، فى الآثار
القديمة ، فى المصارف ، قوايس السواقي ، تجاويف
الطنبور ، بين آلات القطارات ، حول أذرع
السيمافورات ، فى أروقة المستشفيات ، فى الابتسامات
الصفراء ، ارتعاشات الجفون ، لو عرفوه لانقضوا
بحقد ، عمره آلاف السنين ، يتوارثونه ، سامى يضيع
فى رهبة الليل ، يصفى الى نبض العالم ، لا يعرف كم
انقضى عليه تابعا لمولاه ، شهور ، سنين ؟ توقف عمره
عند الثلاثين ، يبدأ من جديد ، أعوامه البعيدة المنقضية
بسهولة قاسية لاتصدق ، كأنها سنين غيره ، من يدري ،
ربما لو مد البصر عبر النيل ، يلقي طفولته ، شبابه ،
حارة البيرقدار ، وقفته يبيع الثياب ، مساومة الزبائن
تغير النهار خارج فترينة الزجاج ، ليس معقولا أن
ما انقضى ضاع تماما .. لابد من وجوده فى مكان ،
زمن ما ...



يرتعش صنوت الشيخ العجوز ، ناظر مدرسة
ابتدائية ، قال انه رأى تباشير الأمل فى انطلاق النهر
كل عام ، فى اكتمال القمر يدرا ، قال ناطق الزمان
انه لايجىء بالخوارق ، لكن شيئا فشيئا يدرك العالم

الحقيقة فيقوم قومة رجل واحد ، سامى ، يقف عند
آخر بيوت القرية ، حافة الصحراء ، يدوس بقدم فى
الحضرة ، وقدم فى الرمال ، فى سكون الليل يحكى
الشيخ عن رجال ماتوا بعد انتظار الامام طوال حياتهم ،
كثيرون خرجوا يبحثون عنه ولم يرجعوا ، توهج فى
السماء نجم وحيد ، ليست المرة الأولى التى يجىء فيها
الى هنا ، منذ مائة عام قضى بمصر زمنا ، ظهر فى كافة
قراها ، نجوعها ، لم يأمن أعداءه كهذه الفترة ، يظهر
فى أسواق القرى ، يتحدث الى باعة السمك المقل ،
وقطع البطيخ ، بالضبط قبل انكسار عرابى ، توالى
الأيام ، تحسس وقع الهزيمة ، وبدأ الحزن يفاجئه ،
لم يهاجمه سنين سجنه الطويلة ، ياه .. لا يضارعه الا
حزنه العظيم كلما تذكر موت الحبيب ، المنجب النجيب ،
ابن بنت رسول الله فى كربلاء ، فى كل عام ، عاش
محرم يقيم حدادا يكاد يهلك فيه ، لكن الحذار ، لو قضى
لن يقوم أبدا ، لن يعرفه أحد ، أبدا يضيع ، اختبأ فى
ثياب الفقراء القتلى كما اختبأ من قبل فى جراح ضحايا
المغول بخوارزم ، انطوى مكتئبا ، فى فوهات المدافع
المنطفئة ، ناءت أعضاؤه بالهم فاستتر ، لو أمسكه
الأعداء لمزقوه قطعا أكبرها فى حجم الحبات الرفيعة
داخل ثمر البامياء ، غير أن فلاحا عجوزا من هذه القرية

عرفه ، تحسس سامى بعينيهِ البيوت فى الظلام ، ربما
 نام الفلاح الفقير فى بيت من هؤلاء ، ربما طبع أثر
 قدميه فوق التراب الذى يطؤه سامى الآن . اقتفى الفلاح
 خطوات الامام ، أقسم الايمان ، وأخذ على نفسه
 المواثيق والعهود ، لن يعلن حقيقة الامام لأحد ، انهما
 غارقان فى زمن الهزيمة . الفرحة غاصت من القلوب ،
 أما الحزن فيثقل الجميع ، شاب الأطفال ، قال ناطق
 الزمان ، ان هذه الأيام البعيدة ذكرته بأيام أكثر
 بعدا ، عندما دخل سليم العثمانى أرض مصر ، ولعب
 سيفه فى الرقاب ، فكاد ينهى الحى بها ، عندما اندفع
 المغول عبر بغداد ، واجتاحوا الشام فى أيام ، رأى فى
 الأعداء رجالا من قبائل الهون البربرية القديمة ، أعوان
 تيمور لك ، الأسبان الغزاة ذابحوا هندود الازتيك ،
 محاربون متوحشون يأكلون لحم الانسان ، ارتعش
 سامى ، يكاد يسمع وقع سنابك الخيول ، اصطدام
 السيوف بعظام الجباه ، قال ناطق الزمان لابراهيم
 الفلاح المعجوز ، ربما لا ترى تحقيق الآمال ، تموت
 محسورا ، أصر الرجل على صحبته ، زعق مناديا ربه ،
 عند قرية «شطب» جنوب أسيوط نسى أهله وماله ، ناطق
 الزمان أبوه ، كفته بيديه ، صلى عليه ، يومها تبللت
 السماء بمطر ، ناعت بحمل غيوم ثقيل ، زعق الناس

فى الصعيد ، أهذه نهاية الزمان ؟؟ أحرق الجثمان ، نشر
الرماد فى أركان العالم وزواياه ، ابراهيم العجوز تبعه
حتى النهاية ، لم يعرف اليأس .. بكى ناظر المدرسة ،
العارفون به ، الذين جاؤوا من القرى المجاورة ، طافوا
معه البيوت ، يكاد سامى أن يرى الفلاح العجوز ،
ابراهيم الراحل منذ مائة عام ، ذهب ولم تتحقق
الأمنيات ، أما هو ، سامى فكل شيء يراه دانيا ، يدخل
الجامعة يصبح طبيبا ، يسمع صوت هدى ، هدى الآن
قريبة منه ، تقول :

— مرور سنوات لا يعنى شيئا .

تقلب السكر فى كوب الكركديه الساخن ، لحظات
صمتها فى أذنيه حديث متصل .

— اسمع .. نبدأ معا . نذاكر دروس
الانجليزية .

لا يرد ، تتدفق فى صدره رغبة ، يحتضنها ، يذيب
فوق صدرها حزنه ، ارهاق أيامه ، يرقص فوق متضددة
الرخام ، يثب فرحا ، يهدأ ، ينقى آلامه ، آه لو يزعق
فى الناس ، تفيض عواطفه ، تعبر ضلوعه ، ولا عاصم
بعد اليوم .

— لن يستغرق الأمر سنة . تعيد دخول الامتحان ،

والحقك أنا فى الجامعة • ليست رغبة آبيك • • انها
رغبتي أنا ياسامى • •

ينطق سامى ، تتبدل الأشياء ، يرق الهواء ،
يقول :

— هدى انت رائعة • • انت ملاك • •

— ياسلام ياسامى • •

تضيق ما بين حاجبيها ، يمتلئ الفراغ بينهما
بالآمال ، تبدو له سنين عمله القاسية وهما ، اسرعه
ليلحق مواعيد العمل ، الوقوف النهارى الطويل ،
ابتساماته للزبائن ، لم يعرف هدى خلال هذه الفترة ،
كانت تعيش فى مكان ما ، قبل أن يعرفها ، يفكر ، لابد
أنه سيلتقى بانسانة تعيش الآن فى منزل معين ،
تتحدث ، تأكل ، ترى من هى ؟ تبرق عيناها فى ذاكرته ،
فى اتساعها يرى البلاد التى تمنى السفر اليها ، البيوت
المغلقة فى الشتاء ، داخلها أصوات الشارع البعيد ،
زعيق السكاري ، هدى تحمل صينية فوقها أكواب
الشاي الساخن ، بين يديه كتاب ، فى أنفه رائحة
الأثاث البيتي ، تسأله عما يحب أن يأكله غدا ، تتصل
به فى العمل ، تدعوه الى غداء خارج البيت •
• ألا تذكر • اليوم عيد زواجنا الثالث •

تحلق ذقنه كل صباح ، تميل تفسل ماكينة الحلاقة ،
يخطف منها قبلة ، يحتضنها عند وقوفها أمام
البوتاجاز .

ياسلام ياسامى . حاسب الشاى .

يدعوها الى السينما ، يمضيان معا ، يسمع صلاة
ناطق الزمان ، حديثه الى مريديه ، تضحك هدى ، يبعث
أبوه حيا ، مورد الوجه ، فرحا ، لا أثر لشقاء السنين
حول عينيه ، ينفذ الفبار عن لافتة مدرسته القديمة ،
تعود طفولته ، آه ما أقسى استرجاع الطفولة ، يأكل
كشوى الحاج عبد العاطى ، يفرح لمجيء يوم الخميس ،
يعقبه الجمعة . آجازه ، يسمع قبقاب أبيه العائد من
صلاة الفجر ، يفرح فى لحظات الهدوء بين أمه وأبيه ،
يعاكس الحاج حامد مدرس الرسم الذى يقف فى
الفصل ، يتأكد من اغلاق الأبواب والنوافذ ، يتطلع
اليه الصغار ، يقول . . اسمعوا يا أولاد . . اسمعوا
غناء عن مصر . . عن مصر يا أولاد ، يحمر وجهه ، ينظر
الصبية الى بعضهم ، يتضاخكون ، يستمر غناء الحاج
حامد ، الآن ، يذكر مذاق صوته ، يكاد يبكيه . يتحدث
الناظر ، والحقير ، والرجال . . لكن لا بد من مواصلة
الرحيل . .

— أرى ديبب أقدامهم • أشعر بانتشارهم •

أدرك سامى خوف ، صاح طائر غامض فى الفراغ
العتيم ، هل يجرؤ-انسان ؟؟

— أنا لا يدنو منى أحد • عند الخطر استتر من
جديد • أذوب فى الصخور •

الجا الى الكهوف الجبلية • أغوص فى عروق النحاس
فى قاع منجم بعيد •

غير أن الأمنيات تشل الى حين •

سامى يهوى ، تصدمه أرض مجدية ، يسفح عمره
عند أفق المغيب ، تعود اليه لحظات احتضار آبيه ،
رحيل هدى ، احترق قلبه يومها ، ما الذى جرى ؟

— متى يجيء الأوان الذى لا بعده ولا قبله أوان
يامولاي ؟

— ربما بعد شهر • بعد سنة • علم هذا عند
ربى •

لو يزعق سامى ، يعبر صوته الهواء ، يجفف صديد
العيون ، يدور مع سيور ماكينات الطحين ، أبراج
الكهرباء ، الجمال المثقلة بالبوص •

— يكون عمرى انقضى يامولاي • لا أسمع هدى
أبدا • أيرضيك ألا أسمع هدى • لا تعود من الحجاز •
لا أراها بكرا من جديد • لا أدخل الجامعة • لا أداعب
طفلى الصغير واسع العينين • طرى العظام •
زعق ريس المركب ، يلتوى القلع التواء حادا ،
يخف السواد ، يفصح النهر عن ملامحه •

— نشقى من أجل الأجيال المقبلة يا ولدى • ينعم
أهلها ، يشربون اللبن من النهر ، يطرح نخيلهم خيرا
وطمائينة ، يأوون الى مضاجعهم آمنين • الفرياء
المفزعون فى سواد الليالى ، يرق هواؤهم ، يصفو
ماؤهم •

ارتجف سامى ، أين أنا عندئذ ؟ أين موقع
قدمى ؟ أى أحجار تثقل رأسى ؟ الظلمة تغشى عيني
جمجمتى الخاويتين ؟ أحلامى تتجمد فى أربعة وعشرين
ضلعاً ، عمود خال من النخاع ، رسفان وساعدان ، كل
ما أصبوا اليه ، أين أنا حينئذ ؟ أين أنا ؟

★★★

يخوض مياه النهر الضحلة صياد عجوز ، يفرس
حرية رفيعة مدببة فى ظهر البلطى والبياض ، سامى
يتأمل قدمى الرجل ، منتفختان بالרטوبة والطمى ،

أخبرهما أن القوارب تزحم النهر ، صغيرة سريعة ، فى كل منها رجلان ، يوقفون المراكب الكبيرة ، يفتشون أواني الفخار ، ينبشون أجولة القمح والبلح ، حتى الآلات الصغيرة المرسله فى الصنادل ، يفكون تروسها ، لم يبد على الرجل أنه عرفهما ، أيضا لم يتضح هل يجهلها ؟ لكن ما الذى دعاه الى اخبارهما بهذا ؟ عاد صامتا يخوض فى الماء الضحل ، نظر سامى الى مولاه ، لطالما أطبقت عليه جبال أعلى من هذه ، صخورها أقسى ، يعرف العالم شبرا شبرا ، وأرض مصر ، يعرف أى نتوء حجرى عند مدخل سمالوط ، التمثال الأثرى القديم قبلى جهينة ، الغرف التحتية فى البناء المشيد قبل الطوفان ، حيث الجو رطوبة فى الصيف ، دفء فى الشتاء ، يعرف المصانع ، مواعيد تغيير الورديات ، صوت مدفع رمضان فى دمنهور ، السويس ، صوته فى قنا ، يحملق الى فراغ بعيد ، ربما يرى أشياء لا يراها هو ، سامى توجهه خواطر مفاجأة ، ربما يعلو أزيز طائرة ، تطل منها عيون فاحصة ، تكشف المخبأ من الآمال ، يمسكون ناطق الزمان وتابعه الأمين .



جنود اللورى عند المدينة الريفية الصغيرة ، بكاء

أحدهم على صدر الامام ، أسمر الوجه يتوسط ذقنه
وشم أخضر ، مستدير ، باهت ، رآه من زمن ، كان مادة
أحلامه ، والصور التي تخللت أيامه ، انه من الأنفوشي ،
يمتلك دكانا صغيرا يبيع فيه الفول والطعمية ، رأى
الامام فى صباه ، فى كل تجويف يفصل بلاط الرخام
الصغير الذى يرصع دكانه ، فى مرض أمه وشفائها ،
انتظره عند ساحل البحر ، فى أبى قير ، فوق الصخور ،
لاشئ ، انما صخور وحشية ، مقطبة الجبين ، تلتقى
التقاء صريحا بالسما والبحر ، لم ينله يأس ، حتما
ينطق الزمان ، من زرقة المياه ، من ملوحة طعمها فوق
الشفاه ، من الطوايى القديمة ، مواسير مدافع عراقى
الملقاء برثاء ، آه يامولاي * * جئت ، وأين ؟ هنا ،
ارتجف اللورى ، لانت ذرات الرمال ، مالت عيذان
القمح ، ابتهل بقية الجنود ، دمعوا ، نزلا من اللورى ،
تساءل سامى ، هل يراهم ثانية ؟ محمد ابن الأنفوشي ؟
حسين نساج الكلیم من فوة ، عبد الهادى عامل الآثار
الصعيدى ، السائق النوبى ، قال ناطق الزمان : حتما
سيرجع ، يلقاهم * هو موجود حتى لو استشر ، فوقهم ،
حولهم ، لاتبعده عواصف ، لاتقصيه صفارات انذار أو
دوى .



« لماذا لم يقل لهم أنه ربما عاد بعد ألف سنة كما
أخبرني؟؟ »

بماذا يجيبون لو عرفوا أن الأعمار ربما انقضت في
انتظاره ؟ استعاذ سامي بالله ، يعرف أن الأعداء
يطرقون الوسائل كلها ، ربما بذروا الشك في حقل
روحه ، توجهوا الى الحجاز ، ذبحوا هدى .. يحضرون
دمها الحبيب اليه ، يرمونه على عينية فيضيع منه
البصر ، يقطع من رجوعها الأمل ، شريهما الكركدكه ،
همسهما الخفيض ، توقفهما أمام فتارين الأثاث ، متاجر
التحف ، تقول هي ، لا بد أن يحتوى الصالون على فائزة
صينية ، تمثال محارب زنجي ، ترى الأطفال الصغار
المصنوعين من الشمع في متاجر الثياب ، تهمس ، أنا
أحب الأطفال ، يخجل ، يتحدد الحديث ، تطلب بنتا ،
يتمنى ولدا ، يكتفيان لا أكثر ، أما اذا جاء الأول ولدا
والثاني ولدا والثالث ، تضحك هدى ، لا بد أن نصر
حتى تجيء مديحة ، يسأل : لماذا مديحة بالذات ؟ لأنها
تحب خالتها جدا ، هي أمها التي لم ترها ، لم تعرف الا
هي منذ الرضاع ، يتساءل سامي : هل تذكر هدى بين
جدران بيتها المفلق ماقيل ؟ ربما أنجبت ابنة الآن ،
حجازية الجنسية ، هل اسمها مديحة أيضا ، السماء

خاوية ، صحراء فى عينى سامى ، الذكرى تلون الأشياء ،
تنأى بالامام عنه ، يفيق الى وجوده .

— لابد أنهم يسدون مفارق الطرقات - يختبئون
فى عربات الرحيل .

يكاد يحس لون نظراتهم ، قسوة خوذاتهم المكسوة
بشباك التمويه ، الهلاك فى أسلحتهم ، تهب ريح عاتية ،
السماء حزينة ، الأرض تقلع ويفيض الماء ، سكت
الامام لحظة كالسنين ، ثم قال انه يعرف دربا صحراويا
غرب قرية الغنايم ينتهى فى صحراء السودان ، لم
تطرقه قدم انسان منذ مر به يتبعه ابراهيم الفلاح
العجوز ، يمضيان فيه ، يخرجان شمال أسوان ، خطت
قدماه فوق الحصى ، رق الغمام ، غير أن شيخوخة غريبة ،
زحفت فى عروق سامى ، لكم أحس بقصر عمره ، فى
مقهى الكلوب المصرى يطوف رجل ضخم ، يرتدى
معطفا جلديا ، فوق ظهره رسم لوحه أحمر ، مشوه
الملامح ، بارز الأنياب ، لايدرى أهو لجن أم انسان ؟؟
أربعة شهور ، فى كل يوم ، نفس الميعاد يجىء ، يضع
بطاقة صغيرة فوق منضدة الرخام .

« اقرأ الكف ، حاضر ، مستقبل ، أحلام ، أمنيات
سيد سعيد » *

يهز سامي رأسه ، يمضي الرجل ، حتى استبد
الفضول بسامي ذات مساء ، شد الرجل كرسيه ، بسط
سامي راحته ، ضيق الرجل عينيه ، أسند رأسه الى يده ،
رأى سكة السفر ، وضيقا في العمل ، ومرضاً في
الصفر .

— لكن عمرك قصير . ولو عشت مائة سنة .

ماذا يقصد ؟؟ أى شئ يعنى ؟؟ لكنه قام ، دس
بطاقته فى جيبه ، طلب خمسة قروش ، فى هذا الوقت
لم يمرض على سفر هدى أسابيع ، هجره النوم ، راحة
عقله متعة نائية ، لا يدرك صاحب المتجر ذرة من
همومه ، أما الزبائن فيشيرون ، أعطنا من هذا ، لا ..
من الأحمر ، قطع أربعة أمتار ، لاداعى ، نلف
ونرجع ، يشرب الماء تسبقه الأقراص المنومة ، حكى
لناطق الزمان عن عذابات الليالى ، سهره حتى مجيء
الرجل العجوز مجدوع الأنف ، فى الفجر تماماً يصيح :
« يانايم قوم وجد الدايم .. بكره تقوم القيامة .. »
وينصب الميزان ، يبقى الى وفى يعدى . أما الشقى
حيران « يدرك أن يوماً انقضى ، يزعق الرجل ، تبقى

النوافذ مغلقة ، من عشرين سنة ، اذ يقترب الفجر ،
يصيح رجال الحارة على بعضهم ، الحاج حنفى جساس
البهائم ، يدس يده طوال النهار فى الأرحام ليعرف
الأنثى المقبلة من الذكر ، يصيح على سعودى الجزار ،
سيد الترزى ، على المكوجى ، ينادى أبوه ، فى دفع
فراشه ، يسمع وقع القباقيب فوق بلاط المساكن ،
اندفاق المياه من الصنابير ، تجمعهم فى الحارة ، عز ليالى
الشتاء ، يمضون الى الحسين ، أصواتهم عالية ، تبقى
معلقة بين البيوت زمنا بعد ذهابهم .

آه لو يسأله سؤالاً واحداً . هل ينوى الاستتار
عنه . الاستتار عنه هو ؟ هو الذى ودع كل شيء ،
لايجرؤ على نطق الكلام ، يردده عقله ، فى خطوه فوق
الرمال القاسية ، تحت انصهار الشمس الذى يزرع
العوسج فى العيون ، يعرف أن الامام يدرك ما فى
خاطره ، عالم بكل شيء ، قرأ كل ماجرى وما سيجرى
فى كتاب الجفر الذى تركه الامام على ، فيه رعدة
الأمم ، خفقة القلب ، هم الفكر ، فرحة الغريب
بالعودة الى دفع البيت ، آه لو يجيب حيرته . يفك
ضيقه ، يللم عذابه . لكنه لم يفه بعرف .

مناجاة القلوب

ماذا يفعل بدونه ؟؟ يسحقه يأس مغرب كالغزاة ،
لحيته طالت ، ملامحه تغيرت ، قبل رحيل أبيه ، موت
أمه ، قبل حدوث شيء مخيف ، تمر به لحظات يتجسد
فيها ما هو متوقع ، عند خروجه من سينما الكواكب ،
عودته الى البيت فى منتصف الليل ، يرى اللحظة التى
تموت فيها أمه ، بكل سوادها الذى ينزف دما ، عندما
رحلت رأى أن الموقف غير جديد عليه ، الآن يهوى قلبه
بين ضلوعه ، يرى لحظة يخافها ، استتار الامام ،
احتجابه عنه ، هل يقتل نفسه عندئذ ؟؟ وهل هذا
سبيل للعثور عليه ؟؟ الآن يجلسان أمام كشك صغير
داخله عجوز نوبى ، يحرس ملايين الأطنان من الطفلة
المنتزعة من المنجم القريب ، مهجور منذ شهور ، لكن من
يتوغل أربعين كيلو مترا شمال أسوان فى الصحراء
ليسرق حفنة حجارة أو طن حتى ؟؟ الصخور تفرقها ،
تتخذ أشكالا غريبة : وجوه آدمية ، سيوف مشرعة ،
بيارق مكسورة ، فيها يرى كل شبر وطئه مع مولاة ،
القرى ، الأمال فى العيون ، بلاد الأفغان النائبة التى
شرعا فى الرحيل اليها ، الهند ، البحار الجنوبية ، سفن
صيد الحيتان ، رائحة العشب فى الغابات ، قرقرة

الترجييلة فوق المصاطب ، تطلع الحراس فى بطاقات
الغرباء ، فى الصخور عيون واسعة قاسية فارقت
رؤوس أصحابها ، ناطق الزمان صامت ، لماذا ؟؟
لا يتحدث عن جيوش الأعداء التى رآها ، أو غضبة
الأرض ساعة الزلازل ، الفيضانات ، الأوبئة تكنس
البشر ، يسبح بعينيه عبر الأفق ، يكشف حجب
المستقبل ، ربما ضاع منه كتاب «الجفر» الذى يحوى
كل شئ ، من بعيد يحبو عويل قطار ، يفاجئه حنين
المسافرين ، شعور الغربة المكثف لحظة عودة الأسرى ،
لماذا يسكت الامام ؟؟ لماذا يطل الحرمان من جديد ؟؟
يكاد يصرخ ، يطلب منه أن يصارحه بما ينوى ، أما
الحارس النوبى فينظر اليه ولها خاشعا ، كأنه قضى فى
رفقته العمر كله -



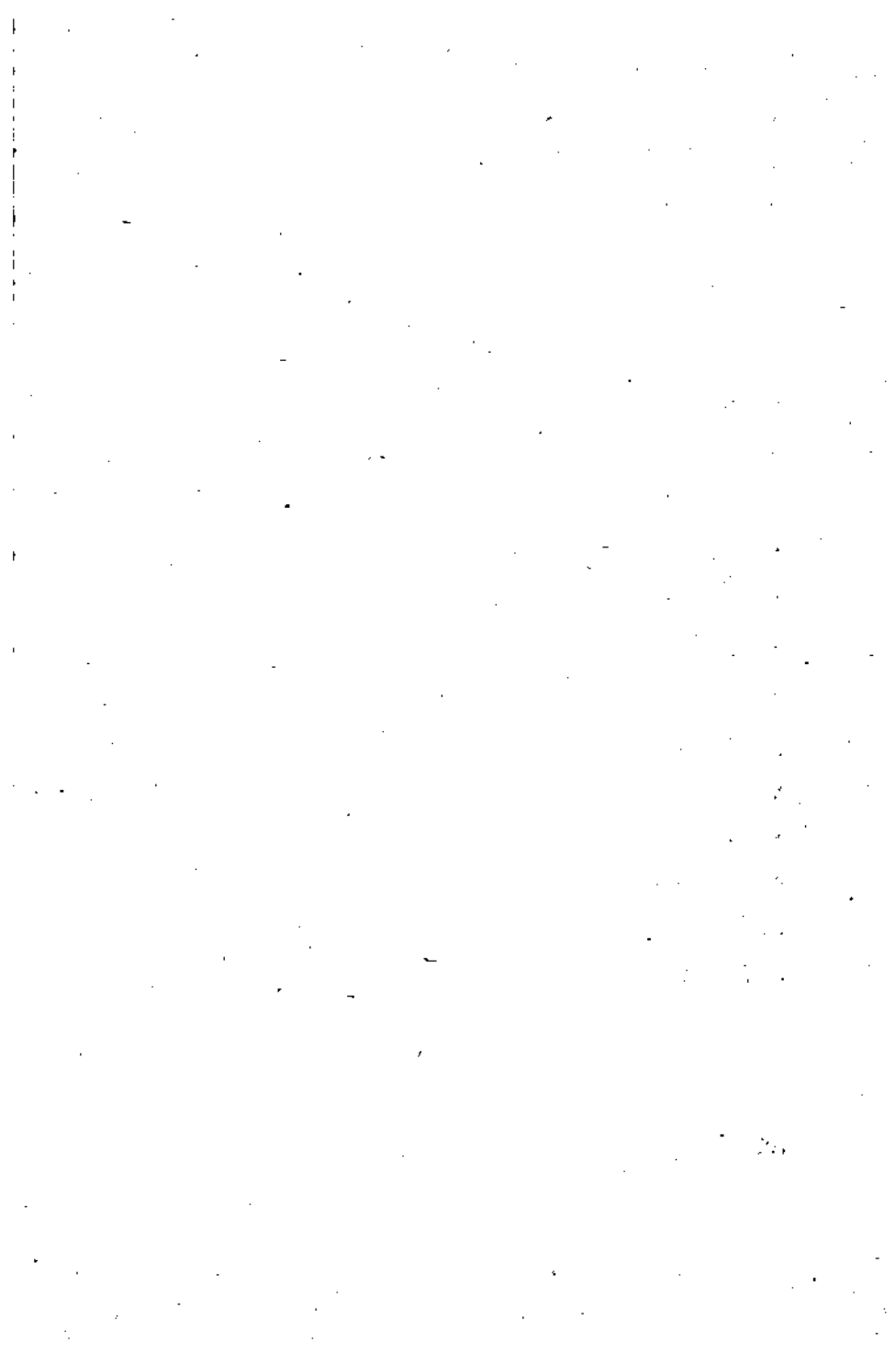
قال ان عربية لاندروفر ، تتجه الى أحشاء
الصحراء ، ركابها أربعة ، يحملون أسلحة ، وآلات
تصوير ، قبعاتهم تقيهم الشمس ، تابعها ببصره حتى
اختفت وسط أعمدة الرمال الناعمة التى ترتفع من
الأرض لتتصل بزرقة السماء ساعة الظهيرة ، تمطى فى
الفراغ عواء ذئب ، قال الحارس المعجوز ، كأنه يقدم

تقريراً مفاجئاً ، ثمة طائفة حومت الى الشرق ، جراحة
ضخمة ، يظن البحر مقصدها .



سامى يرى نفسه الآن مصلوباً ساعة مغيب ، ينادى
الامام أن يظهر ، يعيد ما انقضى ، كان كل ليلة يمضى الى
مقهى مصطفى درويش بميدان الحسين ، يشرب الحلبة ،
ينظر البنات المسرعات الى بيوتهن ، يرى رجلاً مجذوباً
يلف حول رأسه عمامة حمراء فى لون الدم ، يلبس
جاكتة عسكرية عليها شارات ونياشين . تجاورها أغطية
زجاجات البيرة ، البيبسى كولا ، يرفع سيفاً خشبياً ،
يترصد أعداء يراهم هو ، يطارد أجانج خان الخليلي
إذا ما حاولوا التقاط صورة له ، صار يقف فى الميدان ،
لحظة الغروب ، ينادى الليل ألا يقبل ، والنهار ألا
يرحل ، يرميه العيال بالطوب . . « بلعو . . بلعو . . »
عند حارة الوطاويط رآه دامى الوجه ، يمسك إحدى
أسنانه بيده ، أى بشر يدنو منه ، هو عدو يبغى رأس
الحسين بسوء ، سامى الآن يرى عنقه فى قبضة جندي
يسوقه الى غرفة الحجز فى قسم ، يلقيه بين اللصوص
فى غرف الحجز . يسألونه لماذا جاء ، أى تهمة ؟ بماذا
يجيب ؟ لا يأخذه يأس ، يفتش تحت أخشاب الحجر ،

وراء طلاء الجدران ، فى القضبان التى تسور العمر ،
فى غرف التعذيب ، فى اللوريات الرمادية المغلقة ،
تأتى امرأة سجين تناديه من الطريق ، يتعلق السجين
بقضبان النافذة ، تحكى له عن أخبار العيال ، ذهاب
أخيها الى المحامى من أجله ، أمه بخير ، سيجذب سامى
الرجل ، يتعلق بدلا منه ، يسأل المرأة ، عابزى الطريق
عن مولاه ، آه ، يترقق الحزن فى عينيه ، يرى نفسه
معتقلا ، أو نزىلا فى مستشفى للأمراض العقلية ، ولو
.. سيبحث عنه ، ربما تخفى بين النزلاء ، فى
الأشجار الجرداء ، فى ذرات الرمال المرشوشة بالبول ،
كل صباح يكتب خطايا الى هدى ، ينتظر مجيئها فجأة ،
تطبع أثر قدميها فوق الأرض التى مشيا عليها من قبل ،
لكن .. لو ألقاه الأعداء فعلا وراء الأسوار من يزوره ؟
من يحمل خطاباته ليلقيها ؟ من أين يأتى بطوابع
البريد ؟ روح أبيه تحوم حوله ، يرى أمه وهما عند
أشجان الفجر ، آه لو يقول كلمة ، صمته يلوى روحه ،
يفيض أسياخا محماة فى قلب سامى ، لو كلمة ، آه
ياناطق الزمان ياامام ، العمر الطويل تمهيد للحظات
الصمت هذه ، أهكذا .. ببساطة حادة مرهفة كحد
السكين .. أهكذا ؟



خراب الجسور

(١) -

« .. عندما سمعت صوت أختي «سنوات» .. على
الطرف الآخر من التليفون تعجبت ، تساءلت عما جرى ،
لا تحدثنى هنا اطلاقا ، تشير الساعة الى تجاوز الثالثة
والنصف ، بدا صوتها بعيدا مما أجهدنى فى التقاط
الألفاظ ..

— من أى مكان تتحدثين؟؟

— تحت البيت ..

— بيتنا؟؟

— طبعا .. من الاجرخانه .. باقى لك وقت

طويل؟؟

- حوالى أربع ساعات .. ثم أذهب الى الكلية .
- هل جرى شيء ؟؟ ارفعى صوتك .
- أنا مصرة ناكل معا . أتمنى الحديث اليك .
- من مدة كبيرة لم نقعد على مائدة واحدة .
- لابد فيه حاجة .
- أبدا والله . نفسى أتكلم معك .
- لكن ..
- ولا يهمك . أقضى شغلك ومهما تأخرت . أنا
- منتظرة .

لم أرها أثناء الحديث ، لكن صوتها ، تدفق الكلمات ، أوحيا بالبهجة التى تزحم روحها ، رأيتهما تقف ، تحيط بوق السماعه بيدها ، صوتها خفيض ، تشب على أطراف قدميها ، تقطب عينيها اذ يرق حسها . « .. نفسى أقعد واتكلم معك .. » تختلف مواعييدنا ، تضرر أوقات لقائنا ، تقل مرات أحاديثنا ، أول النهار لا ألح الا آثار عملها المبكر فى البيت ، نظافة الصالة ، افطارى فوق الصينية الخضراء المنقوشة بورود حمراء ، أطيل تأملها ، ومتابعة فروعها المتشابكة ، طبق فول ، بيضة مسلوقة ، ملح ناعم

مخلوط بفلفل ، أكل بسرعة ، لا أنظف الأطباق ،
 «سنوات» تنفض الغبار عن الكتب ، تلملم الملابس ،
 تخصص يوم الثلاثاء للغسيل ، تنهى كل شيء قبل
 وصولي ، أعود متعبا ، يضيح النهار في رأسي ، زحام
 عربات وعرق ، وبحث في أدغال القواميس عن معان
 مبهمه ، ألوذ بفراشي الضيق في ساعة متأخر ، أسمع
 خطواتها الخفيفة ، تلامس مشاية اللوف في الطرقة ،
 تطل علي ، تقف بباب حجرتي ، عيناي مفتوحتان ،
 لا أتحرك ، لا أنطق حرفا ، أخبىء يقظتي ، أضيق
 بحروف خفيفة قد نتبادلها ، تصفى ، ربما الى وقع
 انفاسي ، تتراجع على مهل مخلقة همسا من رائحتها في
 الغرفة ، استعدت ملامح صوتها ، «نفسى أقعد
 واثكلم» أى مناسبة أو حدث ؟؟ فى زحام
 حياتنا تفقد المناسبات أجهل يوم ميلادها ، أعرف
 ابريل لكننى لا أدري اليوم ، لا نتبادل الهدايا ، توقفت
 عن ترجمة البحث ، مكاتب الصاج مصفوفة أمامي ،
 فى السقف تدور المروحة الكبيرة على مهل ، أى جدوى
 لهذه الدورات ؟؟ الحر يتمدد فى الفراغ ، استعدت
 هدوء البيت ، صورة أمى وأبى ، تطل علينا من اطار
 كبير ، طرقت صاج المكتب بقلمى ، «.. نفسى أقعد
 واثكلم»

بدا الليل غطاء كثيفا من غربة وارهاق ، أرى
 ذرات الفراغ ، عاط بوق عياطا متصلا انقطع فجأة ،
 أى أمور شغلتنى ، أضعت حديث «سنوات» منى ، أى
 واقعة بالتخديد ؟؟ خروجى من المكتب ، تحسس جيوبى
 بحثا عن دفتر تليفونى ، ضيقى وعودتى الى الكتب ،
 اخراج مافى الأدراج ، فض المظاريف ، ثم يبرق خاطر
 كطلقة - افتح الحقيبة • أتناول الدفتر ، أقلب وريقاته ،
 أضمه فى جيب قميصى ، كيف نسيت ماقالته ؟؟ بعد
 المحاضرة الثانية ، وقوفنا فى الطرقة أمام المدرجات ،
 مجيء مجدى يقضم رغيفا صغيرا سألته ، من أين ؟؟
 أشار الى الخارج ، اعتبرت هذا عشاء يكفينى •
 «سنوات» فى عينيها وحشة انتظار ، تقف أمام المطبخ ،
 تمسك خصرها بيديها •

— قم واغسل وجهك • أعددت مايسرك • ولم أنس
 السلطة الخضراء •

ينتصف الليل بعد قليل ، أقاوم ثقل جفونى ،
 لا أدرى ما الذى يحرك «سنوات» بخفة هكذا ؟؟
 ربما تخبىء مفاجأة • عضضت شفתי ، استعدت
 هزهة الاوتوبيس ، تعلقت بعينين واسعتين تنظراننى

من فوق أحد مقاعد الدرجة الأولى ، نافذتان شفافتان ، يرفرفان على عالم فيه راحة ، وأمان ، ووعود غامضة بالوصول . اتخذت موقعا مناسباً يمكننى من إطلالة عليهما . أحيانا تحولهما صاحبتهما إلى الطريق ، كأنها تعرفنى ، وتعرف «سنوات» من أين جئت ، وإلى أين ؟؟ ازددت قربا ، فى انسيال النظرات نبيل أسطورى ، ألفاز حضارة بعيدة . تمنيت النزول ورائها ، أقف على سرها ، أفك رموزها ، تابعت نزولها ، اعتذار خفى بكل كيانى ، المحاضرة بدأت فعلا ، هل سأراها ثانية فى أى مكان ، متى ، تقول «سنوات» :

— أنظر هذه المجلة الانجليزية . منذ شهور قررت أن أعد لك هذه الأطباق . لن تأكلها مرة واحدة طبعاً . إنما سأعدها لك صنفا صنفا ، وكلما سمح مصروف البيت . مد يدك . تذوق . .

قضمت نصف أصبع كفته .

— الطبق كأنه تجسد خارج الصفحة .

— ولكن . .

مدت يدها ، أصبعها يلامس شفتى ، حركة تفيض أنوثة ورقة ، عاودتنى زرقاء العينين ، زرقه حقيقية ، نغمية ، راودنى يقين أننى سأراها فى الحلم . .

— لاتخش المصاريف • تكاليف الطعام اليوم
بدعوة منى • ياأخي العظيم • عندى بقية نقودى من
جمعية قبضتها منذ شهور • أنت مدعو الليلة الى
العشاء •

تفدق من عينيها حنو عظيم على ، الخطوة الطبيعية
أن أقوم ، أحضنها ، أقبلها ، ثقل يحوشنى ، عواطفنا
لا تعبر عنها بالقبالات ، حتى مرات سفرى النادرة آكتفى
منها بملامسة اليد ، لائلوح بالأيدى ، ينمقد اللعاب
فى فمى ، يبدو الطعام شهيا ، لكن • هل أتساءل عن
امكانية بقاء الطعام الى الغد ، تبدو مستعدة لحديث
طويل بعد العشاء ، «نفسى أقعد وآتكلم ...» أود
اللجوء الى فراشى فى لحظة ، قبل خطوها الى الداخل •
ناديت •

— سنوات ...

التفتت •

(٣)

لمحتها •

لم يخنى نظرى ، ولست مخطئا • عند نهاية
الكوبرى تتدفق المركبات ، يمكننى القفز من العربة

قبل المحطة - استدير الحقها - أتأكد مما رأيته - يبدو
النيل ، أمواجه تمضي في وثبات لينة ، النهار لم
ينتصف بعد ، لم تمض دقيقتان ، لاتكفيان للعبور الى
الطرف الآخر ، اذن تحركت الى هذا الاتجاه ، بالتأكيد
لا تتأبط ذراعه ، انما تمشى بجواره تماما ، يلوح
بيده ، هي صامتة لكن ملامح وجهها تصل الحديث
بينهما ، أدركت تعبيرات وجهها في رؤيتي العابرة ،
بخطي تقترب من الجرى ، حاولت دخول الحديقة •
صدني حارس أسمر اللون •

— ممنوع • ممنوع يا أستاذ •

لم أجادله ، لابد أنهما اتجها الى الطريق المحاذي
للنيل ، ثلاث درجات بها تقترب الأرض من النيل ،
مدهنت البصر ، بلاط مربع كبير ، التراب مخلوط
بزهور جافة تتساقط ، رائحة نبات مهروس ، تموت
هنا أصوات العربات ، الطريق قريب ، لكن ثمة هدوء
متراخ في الفراغ ، لا أحد هنا ، كيف - في هذه
الساعة من النهار ، حتى العشاق ناوا ، وباعة عقود
الفل ، والترمس ، والزهور ، واللب ، ومتكدرى
الخاطر المعتصمين بهداة النيل ، تلفت ، يمتد الكوبرى
كقلعة ضخمة من الصلب والأسفلت ، دعائمه تطعن

النهر ، تتحرك العربات بلا صوت يدرك هنا ، كان
 حاجزا غير مرئي يجمد الأصوات ، يحول المنطوق الى
 صامت ، أين ذهبنا ، تأخذني رغبة حادة لأراها الآن ،
 أمد لها يدا ، أعرف اليه ، أطلب منها أن تجيب ، هل
 تحبه ، هل تحبه فعلا ؟ أسأله ، هل يحبها ، أمسك
 أيديهما ، أميل ، أقبلها ، أنتحى بها ركننا ، أصغى الى
 كل ماتخبيئه ، « . . . نفسي أقعد وأتكلم معك . . . » أخفف
 عنها ، أزيح ثقلا تنوء به ، ربما دعوتهما الى عصير
 فاكهة فى الكازينو القريب ، نمشى ثلاثتنا ، ياه . .
 لم نخرج أبدا للنزهة منذ وقت بعيد ، لم ندخل سينما ،
 لم نزر أحد أقاربنا معا ، لا أعرف أسماء صاحباتها ،
 رأيت بعضهن فى البيت ، يتحفظ صافحتهن ، تجهل
 أصدقائى ، زملائى فى قسم الدراسات العليا ،
 لا أتساءل عن الأماكن التى أتردد عليها ، أبدا .
 سأصارعها الآن بضرورة اقترابنا ، لن أمضى الى الكلية
 لكن الطريق موحش ، الزحام قريب والخلاء هنا
 عجيب . عيون النيل الخفية تنظرنى ، ريح خفيفة
 تحرك أوراق الشجر ، ربما رأيت أسطورية العينين
 الآن ، سأقدم منها ، أحدثها عن «سنوات» ، نبحت
 عنها معا ، فوق النهر يمضى مركب شراعى متمهلا ،
 لم الملح فوقه انسانا ، لا أدرى أين ذهبت سنوات . أين

صاحبها ، أين تقسيم زرقاء العنسين ، أين تخفى
أسرارها ، يهبط قلبي بمقدار قبضة يد ، ربما تركب
قطارا يحملها الى مدينة أخرى ، ربما سافرت الى بلدة
بعيدة لن أذهب اليها قط ، تحادث غرباء وتناجي
غرباء ، ربما . . . ربما رحلت رحىلا أبديا ، ثلاثة
أيام مضت على رؤيتها ، ما يمكن وقوعه خلالها كثير ،
أما سنوات ، أين ، وكأننى ألمحها ، لم أود الاصفاء الى
ماتكنه الآن ، أثق فى رؤيتها ، أدركنى عجز وناء بى
أسى .

— سنوات . . سنوات . . .

(٤)

رأيتها تقف بالباب ، أنهيت اضطجاعى . .

— تعالى . .

أومأت مرحة ، جلست عند طرف السرير ، تبسط

راحتيها ، تضمهما ، تدسهما بين ساقها .

— سأعطلك .

— أبدا .

— عموما قررت الليلة ألا أنام حتى أراك .

— خيرا .

بدلال هزت رأسها •

— أبدا • • أراك • •

أطرقت ، على مهل تقول :

— وأتكلم معك • •

تتأهب للافضاء بما تود البوح به • فى هذه اللحظة أدركت أننى نسيت تماما ملامح زرقاء العينين ، اختلطت بالزحام ، وأشجار حديقة الأورمان والحضرة الخصبة ، لكننى لم أفتقد خلاصة المعانى ، أين ذهب اذن ؟ كيف ضاعا منى ؟ رأيت ألا أفتحها فى الأمر الليلة ، ربما امتد الحديث وتشعب الموضوع ، لست متأهبا للاستفسار والمناقشة ، جاءت بنفسها ، هل لمحتنى أثناء بحثى عنها ، منذ أيام أخفت ضيقها ، حتى الآن لم نأكل معا ، أول أمس ، قالت انها لن تدع يوم الجمعة يفلت ، ستغلق الباب ، لن تسمح لى بالخروج •

— هل أعطلك ؟؟

— أبدا • أبدا •

تعض شفتها السفلى ، بحركة خاطفة تتربع فوق السرير ، نظراتها جانبية ضاحكة ، لم أعتد هذا الخجل

الأثنوى ، عندما أنظر الى صورها أثناء الطفولة ،
لا أتعرف فيها على مقدمات هذه الأثنى التى تفيض
حيوية • تستعد للحديث •

— تعرف ؟

لحظة نطق الكلمة ، بلا قصد ، نظرت ساعة
معصمى ، تمضى العقارب الى الثانية صباحا ، قامت •
— واضح أننى أعطلك •

بريق الحماسة خبا فى عينيها ، الألفاظ صرعت
عند طرف لسانها • تدلت يداها ، قطعت حبلا يصل
الأشعة ، مزقت وصلا كاد يتم • •
— أبدا • اننى أسمعك •

عيشا تلتئم الضفاف ، أعطبت ودائرا فى
عينيها •

— أعرف مشاغلك ، لن أعطلك •

فى صوتها خيبة من أوشك على بلوغ المراسى ، ثم
اكتشف وعورة القيعان ، نتوءات الصخر الجبرى ، فعلا
سألنى راحتى بمفردى اتمدد قبلك ، استدعى حوادث
يومية ، أرقب دولا ب الكتب فى العتمة ، قبل خروجها
صحت :

- يا ه - كدت أنسى - خيل لى آننى رأيتك فوق
كوبرى قصر النيل عند الظهر ..
- أنا ؟؟ أبدا - أنا لم أفارق عملى اليوم كله .
يمكنك أن ..

تبدو فرحة قليلا بتلميحي ، صدور اهتمام من
جانبي ، ربما استعادت حماسها ، تعود الى الجلوس ،
تحدثنى عما تكتم ، أبدا ، الصدا يخنق البريق ، تشاءبت ،
أغدقت حنوا على صوتى .

- أبدا ياسنوات - يكفى قولك هذا - خيل لى
فقط .

(٥)

لا أدري كم نمت ؟ فى هدأة الليل اذ يدركنى قلق ،
أعود جنينا أتلمس جدران الرحم ، يثقلنى همود الليل ،
بينما يعدو النهار فى رأسى ، أرى مالم أتوقف عنده فى
يومي الراحل ، أستعيد ملامح عجوز يمشى مرتجف
الخطى ، يوشك أن يقع ، بعد أيام أدركت هدفه ، فتاة
سمراء صغيرة ترتدى زى المدارس الثانوية ، تطل من
حقيبتها كراسات ، ومسطرة ، وعلبة ألوان مائية ،
يقترب حتى يحاذيها ، يبتعد ليعود من جديد لحظة

وصول أتوبيس ، تنتشر الحركة بين الواقفين ، يزداد
 قرباً منها ، اليوم سمعته يلقي تحية مقتضبة خجولة
 «صباح الخير» أسرع مختفياً ، تنظر الفتاة الى الأمام ،
 لا يعينها ما يدور حولها ، الآن . . تطل زرقاء العينين ،
 السمات ضائعة ، لكن الجوهر لم يفتقد ، تنظرني من
 إطار باهت قديم ، لحن غير منطوق يأتي من جزر بعيدة ،
 لغز من حضارة قديمة لم يحل ، أضعها بسهولة ، في
 المكتب أثقلني وجودها داخلي ، قام جلال زميلي ، اقترب
 مني ، شكا الى أماً في كليتيه ، قلت اذهب الى الطبيب
 لعمل أشعة ، وددت لو ابتعد عني ، عدت باحثاً عن
 معنى العينين ، أمسك يدي ، لامست جنبه الأيسر ،
 ضغط أصابعي ، هز رأسه ، ليست هي السبب ، قلت
 ماذا اذن ؟ مال الى هامسا ، قال انه منذ ليلتين فتح
 النافذة ، لا عمارات أمامه ، يطل على خلأ وسيع ،
 أصر أن ينام مع امرأته في ليلة الصيف الحارة هذه ،
 تمدد بجوارها حوالى العاشرة والرابع بالضبط ، يذكر
 الوقت تماماً ، التحمما ، التصقفا ، احتكا ، مثيرات
 ومقدمات ، كم استغرق ؟ خمس ساعات كاملة ، حتى
 كادت تجن ، وعندما صرخت من اللذة كان العرق يببله
 تماماً ، آتنام الحديث صوته يتمهل ، يبدو بطيئاً يبتلع
 لعبه ، أصغيت ، يلقي متعة في قص التفاصيل ، قال :

بالتاكيد نسمة برد هي السبب ، اذ حدث في حوالى
 الثالثة والنصف بعد استلقائه هامدا • آن هبت رقائق
 هواء نفدت كالابر الرفيعة الى كليتيه • قلت يستحسن
 الاسراع بالعلاج ، البرد فى هذه المناطق وعر وخطر ،
 لابد من الذهاب الى طبيب ، قام • بعد ساعات عاد الى
 هامسا ، خمس ساعات ، آى والله حتى كدت آجن ،
 راودنى حنين الى أسرة وأطفال ، آنشى فى متناول اليد •
 لم أسأل «سنوات» عن أفكارها حول الزواج ، الرجل
 الذى تنوى قضاء بقية عمرها معه ، صورته فى ذهنها ،
 ربما آخذ زملائها ، لا أعرف واحدا منهم ، لم أزرها فى
 العمل مرة ، غدا سأسألها عنهم ، عن معارفها ، غدا بعد
 عودتى سأوقظها لو وجدتھا نائمة ، نجلس معا ، نتبادل
 الضحكات ، أمس كنت قاسيا ، غليظ القلب ، عندها
 ماتود قوله ، لم أصغ ، الآن • • يترامى من بعيد صوت
 قطار يعبر الخط الحديدى القريب ، بدا الصوت مطاأا
 كأنه لن ينتهى ، فى أويقات أرقى يثير فى هذا الصوت
 حزنا ، وذكرى أياما غائبات ، أرهفت السمع • باب
 حجرة «سنوات» يفتح ، التقط صريره الضئيل فى
 نهاية الطرقة ، تتجه الى الدورة ، لم تضئ المصباح ،
 هل أقوم ؟ آقفز أمامها فجأة بعد فتح بابى ؟ دعابة من
 دعابات الزمن البعيد ، فى البداية ستبدى انزعاجا

لكنها تضحك ، نتعاقب ، صوت ورق يمزق ، ماذا تفعل
 «سنوات» ؟ لم يخلق باب الدورة ، واضح أنها تقف
 أمامه ، أوراق تمزق قطعاً صغيرة ، يبطل صوت
 التمزيق اذ يزداد سمك الورق فيصعب تقطيعه ، تشد
 «السيفون» تتدفق المياه بسرعة عالية ، اتخذت من
 طشيشها ستارا لنزولي من السرير ، أصغيت من خلف
 باب حجرتي ، أى أمر يحدث ؟ يد طويلة الأظافر خمشت
 قلبي • تبكى «سنوات» بصوت عال ، نشيجها يصلنى
 واضحا • أرى جسمها يهتز ، تذرف دموعا ، حتى رأيته
 تبكى ؟؟ لحظة انزال «والدنا» غرفة الدفن ، اندفاعها
 المفاجيء ونواحيها الملتاع ، أيدي الحريم تمتد اليها ،
 تحوشها ، تمنعها • «سنوات» الآن تبكى ، جاءنى صفيح
 القطار من بعيد خيطا متسلخا متعبا ، يدوب فى الليل،
 عندما انتهى أحدث خواء كونيا وحشيا صارما يثقلنى،
 لم أدر هل بقيت فى الصالة ، هل عادت الى غرفتها ، هل
 تقف مكانها ؟ تلملم ماتناثر من قصاصات لتعاود
 أبادتها ، هل ارتابت فى قيامى فأخرست نوحها ؟ هل
 سمعت فعلا حركة قدميها وطشيش المياه ، غدا ••
 أستفسر وأعرف ••

(٦) -

طلعت السلم بسرعة ، لن أذهب الى الجامعة ،
سنخرج مقعدين الى الشرفة ، نجلس معا ، لن تضايقنا
الشمس ، تواجه الآن جانب البيت الآخر ، تدثرنا ظلال
حانية ، نأكل معا ، نتحدث ، نتحدث ، «نفسى أقعد
وأتكلم معك ..» لا أنسى هزة صوتها عبر الأسلاك ،
أصغى اليها ، أقول وكان حديثي يبدو عابرا ، خيل
لى فى الليلة الماضية أنك قلققت ، وانك تبكين» .

- أهلا . أى مفاجأة .

افتقد رائحة البيت فى مثل هذا الوقت ، عير
الاستقرار ، رائحة الأثاث ، والغسيل ، وطعام طهى
ففلا ، حملت الحقيبة عني ، لا تتحرك بخفة ، افتقدت
بهجتها ، عندما نبدأ حديثنا ستتبدد الوحشة - باب
حجرتها مفتوح .

- الله .. عندك ضيوف ؟

- سهام صاحبتى : تعال أعرفك بها . تعال .

قامت سهام ، تبدو خجلة .

أخى ياسهام .

فاجانى افتقاد زرقاء العينين ، كريستالية النظرات ،

لحظات فى مركبة عامة ، عمر طويل من علاقة لم تتصل ،
طاقة قدر فى سماء فسيحة ، تبرق لحظة ، لا يراها الا
صافى القلب • فوق السرير مجموعة من صوري ،
تعرضها سنوات على صاحبيتها ••

— لاجديث لسنوات معنا الا عنك • عرفناك قبل
أن نراك •

— ياه •• سنوات تبالغ •

تراجعت برأسها الى الوراء ، تقول • بجرأة تمحو
آثار الحجل الأولى ••

— أبدا •• ياسلام ••

هل طالعتنى عيناها فعلا ؟ هل رأيت «سنوات» فوق
كوبرى قصر النيل ؟ تشب على أطراف أصابعها ، تعاودها
سعادة ، تود لو بقيت معهما ، عدت الى الصالة ، تنفذ
رائحة البيض المقل • قالت انها لم تعرف نيتى فى
المودة مبكرا ، لم أقل اننى رغبت فى الحديث معها ،
أسألها وتجيّب ، قالت انها لم تشتر بسطربة لكنها تظن
البيض والجبنة كافيين • عادت الى سهام ، سمعتها تقول
انه يرهق نفسه كثيرا ، يخرج من مكتب الترجمة الى
الكلية ، يواظب على المحاضرات ، قالت انه لن يهدأ

حتى يحصل على الدكتوراه ، بعد الماجستير ، قالت بصوت خفيض : أوقفت مضغ اللقيمات ، أن أخاها مثابر ، قالت سهام كلاما لم أتبينه ، ضحكت سنوات ، عاودني الصوت خفيضا ، تتوالى دقائق هاون نحاس من الطابق العلوى ، خطر لى القيام والزعيق مطالباً بالكف ، الوقت عصر ، البعض يغفو من عناء • سيبدو هذا منفرا ، عادت سنوات تضحك بهدوء ، ضحكا رائقا تذكرت بكاءها ليلة أمس ، بدا قضاء العصر فى البيت مقبضا ، نظرت ساعتى ، يمكننى لحاق المحاضرات •

(٧)

يبدو الحديث مصحوبا بصدى ، تنسال الرؤيا ، تقول سنوات انها ستدعونى ليلة ظهور النتيجة ، سترتدى فستانا لامعا ، أبيض محلى بلآلىء صغيرة ، دقيق كايماءة رأس ، تتأبط ذراعى ، ندخل معا ، نذهب بعد العشاء الى مسرح أو سينما • سكنت لحظة ضئيلة كثقب ابرة ، فى بريق البهجة الملح الأسى ، فى تدفق الألفاظ أرى تعثر المعانى واختناقها ، شئ ما لا أقدر الإمساك به ، يدفع مرارة مقطرة الى ركنى عينيها ، كأنها أهينت منذ قليل ، ثم كتمت ماحاق بها ، فجأة سألتنى : ألا تفكر فى السفر ؟؟ قلت : الى أين ؟؟ قالت : الى بلاد الدنيا ، رأيت رحيلنا معا ، ركوبنا

سفينة لنرى ركنا من الدنيا ، نواجه البحر والمدن
 النائبة والغرباء ، نوقف الناس ونتعرف اليهم ، نقيم
 العلاقات ونكتب العناوين ، تناقش الركاب فى
 القطارات ، اذ يحاصرنا البرد فى غرفتنا الصغيرة ،
 بفندق قديم ، نستعيد طفولتنا ، ملامح آيامنا الضائعة .
 نذكر حديث والدنا عن استانبول ، رحل اليها فى
 شبابه أثناء عمله مدرسا ، سنوات تذكر بريق عينيه
 عند حديثه عما رآه ، ضفاف البوسفور ، مآذن
 استانبول ، حوارها الضيقة ، لكنة الأذان الغريبة .
 قالت : نبدأ باستانبول ، مارأيك ؟؟ أومات موافقا ،
 رفعت ذراعا ممدودة الى أعلى ، لنُدخر المال ، لنُ
 أضايقك ، ابتسمت ، لو رأيته معجبا بفتاة ما فلق
 أقف حائلا أمامك ، يمكنك تجاهل وجودى تماما ،
 وكأننى لا أشغل حتى جزءا من الفراغ . أبدا .

(٨)

يرسل المصباح ضوءا واهنا كالوحدة ، البيوت
 مصلوبة فى سواد الليل ، أربعة رجال يقفون أمام
 البيت ، أبطأت خطاى ، طفلة صغيرة تلمحنى ، تصرخ -
 - أبلة سنوات - أبلة سنوات -
 أحاطت ساقي بيديها ، ابنة عم محمد البواب ،

تقدموا ، رأيت الشارع ، بلاطه المضلع ، الهواء فى الفراغ ، رائحة غسيل منشور ، رأيت أحد الرجال مرتديا حلة زرقاء بصفين من الزراير النحاسية - رأيت استانبول ، الصور القديم ، فى احداها أحيط سنوات بذراعى ترتدى عقالا عرييا ، أشهر مسدسا بينما يبدو وجهها الطفل رائقا ، رأيت الرحيل ، الأطباق منكفئة فوق طعام بارد ، بينما يهبط داخلى ثقل من رصاص .
- أبله سنوات . أبله سنوات .

- بقيت هنا مظاة أربع ساعات . لو نعرف تليفونك لاتصلنا بك .
- الاسعاف لم تنقلها .

- أخذوا عم محمد البواب لسماع شهادته . هو الذى رأى كل شىء .
- كان يقف لحظة .

تتفصل الطفلة عنى ، لا أقدر على النظر الى أعلى ، الى شرفتنا ، رأيت شرفات السلالم لامعة . موضع العينين تجويف خال من الزرقة . انتحت الطفلة ركنا ، مثلى تماما ، لم تر لحظة مجيئها الى العالم ، ولا لحظة رحيلها عنه ، لا أتبين ملامح الطفلة ، لا أدرك أصوات المتحدثين ، يدمينى النشيج الوعر .
- أه . أبله سنوات . أبله سنوات .

فهرس

الصفحة:

- وقائع حارة الطبلاوى ٣
- منتصف ليل الغربية ٣٣
- ناطق الزمان ٦١
- خراب الجسور ٩١

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٤/٤٥٧٤

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ٠٤٤٣ - ٤

مختارات فصول

تصدر أول كل شهر

«منتصف ليل الغربة» .. هي المجموعة القصصية السادسة للكاتب الكبير «جمال الغيطاني» ، الذي لفت إليه أنظار القراء بمجموعته القصصية الأولى : «أوراق شاب عاش منذ ألف عام» ، ثم مجموعاته القصصية التالية ، ثم برواياته الأربع ، وأيضاً بتحقيقاته ومشاهداته كمراسل حربي صحفى وأديب . والغيطاني ذو صوت متفرد ، تأثر في لغته بلغة ابن عباس ، والتفريدى ، وكتب المتصوفة ، وأخضعها قصصياً لوسائل فن القص الحديث ، خاصة المنولوج ، والتداعى وفتتت اللحظة ، وتداخل الأزمنة ؛ فهو وثيق الصلة بمعطيات التراث التاريخي ، والصوفي ، وكتب الأخبار والأسمار والمقامات والحكايات في تراثنا العربى ، والأزمنة الماضية عنده سيالة ومتدفقة تصب في قلب الحاضر ، وشخصه ، على عذاباتهم الحياتية والروحية ، لا يتوقفون عن الحب ، والرغبة في الخلاص ، والتوق إلى مستقبل وريف .

